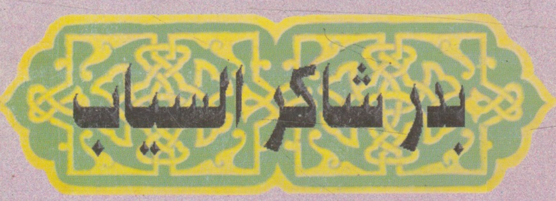
مكتبة الأسرة ١٩٩٨

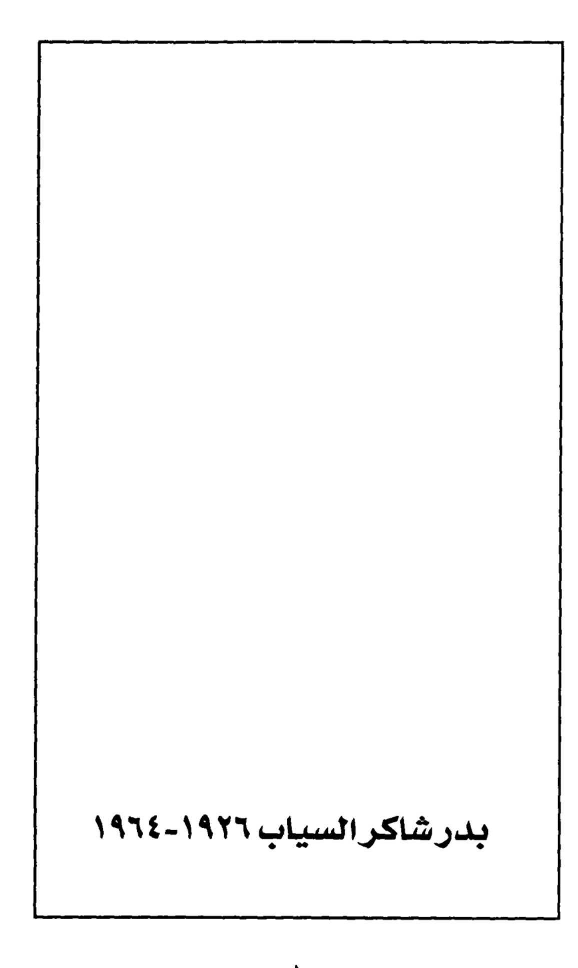
الروائع

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

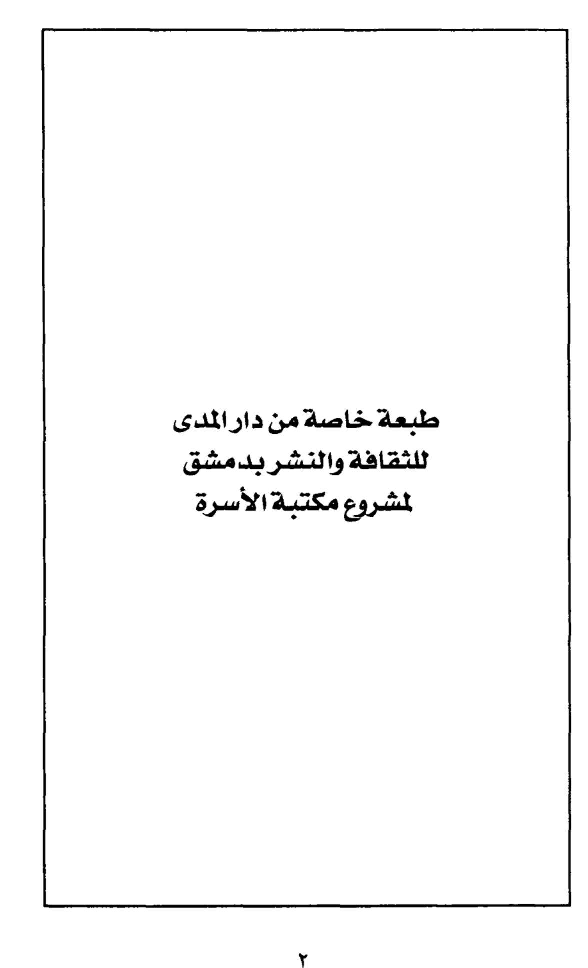








بدر شاكر السياب ١٩٢٦-١٩٦٤



طبعة خاصة من دار المدى
للثقافة والنشر بدمشق
لمشروع مكتبة الأسرة

بدر شاكر السياب

١٩٢٦ - ١٩٦٤

إعداد وتقديم

سعدى يوسف



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الروائع)

بدر شاكر السياب ١٩٢٦-١٩٦٤

إعداد وتقديم: سعدى يوسف

الغلاف للفنان :
جمال قطب
الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى
المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

هذه المختارات تعتمد المسارَ الزمني ، إلا أنها معنيةٌ أساساً بالسيرورة الفنية ، التي لم تهملِ ، البتّةَ ، فكرةَ الدائرة . بمعنى أن «أنشودة المطر» على سبيل المثال قد نجد ما يقارب مطلعها في قصيدة سبقتْها بزمن طويل نسبياً .

أما الإبتداء بـ «في السوق القديم» ، فلأنّ هذه القصيدة بالذات ، شكّلتْ ما يمكن أن أسمِّيه أسلوبيةً فريدةً لمجمل حركة الشعر الحر في البدايات ، وقد ظلت هذه الأسلوبيّة سيِّدةً ، حتى قَوِيَ الجذعُ ، فتعددت الأغصان .

ثم أنني حاولت في هذه «المختارات» أن أقترب من بدرٍ ، فرداً ذا مذاقات ومجسّات وهواجس . . لم أحاول تقديم «الشاعر العامّ» .

«المختارات» قراءة شخصية لصديقٍ ، هو «ابن الشعر العربي ، ومحوِّل مجراه» بتعبير محمود درويش .

س . ي

بدر شاكر السياب

انطباعات

في نهايات ١٩٦٣ ، وكنت خرجت للتوّ ، من السجن ، بل السجنين : سجن نقرة السلمان الصحراوي ، ثم سجن بعقوبة ، ذهبت الى مستشفى الميناء ، بالبصرة ، حيث يرقد بدر شاكر السياب ، بعد عودته الخائبة طبياً من المملكة المتحدة .

سألتُ عن غرفته ، فأشاروا الى أحد الممرات ، مبيِّنين أنها في نهايته . منذ خطوتي الأولى في الممر المقصود ، شممت الرائحة : رائحة تعفُّنٍ وصديد ولحم فاسدٍ . لم تكن كرائحة المستشفيات ، مختلَطَ مطهِّراتٍ وأدويةٍ وهواءٍ حبيسٍ .

كانت رائحة قبر قديم .

حين دخلتُ الغرفة ، كان بدر ممدداً ، نصفهُ الأسفلُ عارٍ تماماً . عيناه الضيقتان عادة ، المنحرفتان قليلاً كعينين مغوليّتين ، كانتا وحدهما تلتهمان الحياة ، متّسعتين كما لم أعهدهما البتة ، طوال علاقتي ببدر .

في الغرفة كانت عمته آسية :

... وآسيةُ الجميلة كحَّلَ الأحداق منها الوجد والسهر .

أسيةُ ، صديقة أمي .

تركتْ لي آسية الكرسي الوحيد ، حيث كانت جالسة لصق السرير .
سلَّمت . ابتسم ابتسامة عريضة .
قال لي : أين كنتَ ؟أجبتُ : في السجن .
سأل : ولماذا سجنوك ؟ أنت لم تحمل سلاحاً ضد أحد...
قلت : إنها أيامٌ مضطربة .
قال : وماذا ستفعل الآن ؟
أجبتُ : سأرحل...
قدَّمتُ له كتاباً باللغة الانجليزية يضمّ مختارات من شعراء انجلترا الجدد .
قال : هذه أجمل هدية تلقيتها منذ دخولي هذا المستشفى .
قلبْتهُ آسيةُ ، بصعوبة ، الى جنبه . كان لا يطيق حراكاً ، والبقاء في وضع تمدُّدٍ واحد يسبب له قروحاً .
نقلت الكرسي الى الجهة الأخرى المواجهة .
قال ، مشيراً الى نصفه الأسفل العاري : عظامي تتآكل . من سوء حظي أن تولّى علاجي في مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت طبيبٌ دجال .

•

زرته ثانية في المستشفى .
كانت حاله تسوء .
ودّعته . قلت له إنني راحل في فترة أسبوع .

•

بين ١٩٤٩ و١٩٦٤ ، تعرجت الخطوط ، وافترقت المسالك ، في سنوات مضطربة وضعت أساس الاضطراب المستمر ، العميق ، الذي ظلّ يعصف بالعراق ، ويُعيق تطوره ، حتى الآن .

وفي تلك السنوات ، لحق بدراً نصيبه من الإضطراب المألوف : الفصل ، والهجرة ، والعَوَز .

ولحقه أيضاً ، نصيبه من الإضطراب غير المألوف ، فارتدى سترةً أخرى ، منحها الاعتزاز ذاته الذي حظي به اختياره الأول .

إلا أن الشعر ، في الحالين ، ظلَّ بمنأى ، الى حد كبير عن متطلبات عادية للسجال السياسي اليومي .

إن قصائد السجال السياسي اليومي ، التي برزت في فترة السترة الأخرى بخاصة ، يمكن حذفها ببساطة من ملكوت بدر الفني . وبالإمكان القول ، بلا تردد ، إن سلسلة مقالات « كنت شيوعياً » هي نثر رديء ، حتى بمقياس نثر بدر .

أقول إن الشعر ، في الحالين ، ظل بمنأى ، الى حد كبير ، عن المتطلبات العادية للسجال السياسي اليومي . فالفترة الأولى أطلعت « أنشودة المطر » ، و« غريب على الخليج » و« الأسلحة والأطفال » مثلاً . والفترة الثانية أطلعت قصائد بُويب ، و« المسيح بعد الصلب » و« أغنية في شهر آب » ، على سبيل المثال أيضاً .

•

لقد رأى بدر ، وهو الإنتقائي ، أن الشعر في الحياة مستبعد ، فاختار الحياة في الشعر .

إن دورة الساعات الأربع والعشرين في يوم بدر ، هي دورة عادية جداً ، تافهة في الغالب . مقاهي الشاي القذرة المكتظة ، وحانات العراك ، والعمل اليومي الرتيب في أوساط لا علاقة لها بالفن والابداع ، والتوتر غير المجدي لأطراف سياسية متناحرة ، والمجتمع المتوزع على قلعتين موصدتين : الذكور ، والإناث ، ثم تلك الغِلظةُ الفاقعةُ التي تسم ، أو تصم ،

التعامل اليومي في العراق ، بخلاف ما نعهده في بلدان مثل مصر ولبنان وتونس .

هكذا كان على بدر ان يقيم مملكته العجيبة ، البعيدة ، المنقطعة عن الدورة الملعونة للساعات الأربع والعشرين ، وهي مملكة من أنهار ونخيل ومعابد وشرفات ، يتجول فيها طفل واسع العينين ، متضخم حساسية الأذنين ، مملكة لا تأخذ من الطبيعة المكتنزة الا تلك العناصر التي تجعلنا نلمس الأسطورة التي شيَّدها ، متمهلاً لاهياً بمعادلاتها ومشكلاتها ، متناسياً ، في عمْدٍ مدروس ، ما حوله من تفاهة اليوم وغِلْظَتِهِ .

•

ارتور رامبو ١٨٥٤ ـ ١٨٩١

بدر شاكرالسياب ١٩٢٦ ـ ١٩٦٤

مصادفة الموت المبكر ، في السن ذاتها ، ليست وحدها التي جعلتني أمضي في طريق التماثلات بين بدر ورامبو .

إن بين قدِّيس جيكور ، وأمير الأردين الأشم ، الأمير ـ الشمس . أكثر من وشيجة وآصرة .

كلاهما جاء من المزرعة الى الحاضرة .

بدر من بستان على ضفة بويب .

ورامبو من مزرعة روش .

وكلاهما كان مسلِحاً بوعي متقدم على الحاضرة .

كلاهما خط في الشعر حد السكين ، بحيث لايمكن ان يشار الى تطور الشعر في أرض العرب وبلاد الغال ، إلا بـ « قبلُ » و« بعد » ، اذ هما كبُرجي حدودٍ .

كلاهما افتقد حنان الأم : بدر بموت أمه المبكر ، ورامبو بتلك الأم القاسية التي «قفز من حقويها مثل ترس ساعة ضائع» - بتعبير هنري ميللر .

كلاهما كانت حياته نصفين .

كلاهما عرف المنفى ، اختياراً أو ارغاماً .

كلاهما وقف وراء متاريس الكومونة .

كلاهما قضي في مستشفى التهمت فيه الغنغرينا الجسد المنهك .

وكلاهما مشى في جنازته اثنان ، حسب...

التماثلات كثيرة .

وأنا لستُ في معرض تقصّيها ، تفسيلاً ، تفصيلاً ، إلا أنني أجد ضرورة في إبداء رأي يتعلق بالتماثل بين بدر ورامبو في مسألة اللغة والتعبير .

فالإثنان متفقهان في اللغة ، ممسكان بأسرارها وأغوارها ، ولقد حفظا للغة بهاءها ، لكنهما وضعا تلك الأسرار والأغوار ، وهذا البهاء ، في خدمة تعبير جديد ، صادم ، وصارم الى حد واضح ، حتى لقد اعتبرناهما ، في وقت قصير مقايسة ، كلاسيكيين ، أي ثروة إنسانية دائمة .

إن عمق كلاسيكية الاثنين الجدلي كان نقطة الوثوب الى الثورة .

•

والآن...

بعد ثلاثين عاماً من رحيل بدر ، ماذا بمقدور المرء أن يقول ؟

هل نُلحق بدراً بالذاكرة ، الذاكرة التي تنسى ؟

أم نضعه بيننا ، نتعلم منه ، ونتحاور معه ؟

ليس من خيار ، لي ، في الأقل .

أتذكر جلسة مع بدر ، في مقهى صيفي على كورنيش شط العرب .
ثمت سفن خشبْ قادمة من الخليج وسواحل افريقيا ، وسفن عابرة محيطات
سألت بدراً عن مقطع في قصيدة « أنشودة المطر » :

أصيح بالخليج ، يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه النشيج :
يا خليج
يا واهب المحارِ والرد...

قلتُ له : لمَ حذفت كلمة « اللؤلؤ » بعد « فيرجع الصدى » ؟
كان الجواب غير متوقع .
قال لي : الصدى يرجع الكلمات الأخيرة . الصدى يُرجع المنساب .
في كلمتي « المحار والردى » حروف اللين . كلمة « اللؤلؤ » لا يمكن ان
يُرَجِّعها الصدى ، ولهذا ينبغي أن تحذف .

إذا ، لأتعلم من بدرٍ . ولأمضِ في التتلمذ على يديه .

ولنا أن نحاوره .
لنا ، ان نقول له ، كما قيل لشاعرنا القديم :
« يا هذا ، لقد شَقَقْتَ على نفسك . إن الشعر لأيسر مما تظنُ » .
لكنه لن يأخذ برأينا .

وشأنه شأن مستكشفي الممرات ، سيقول لنا :
وعرٌ هو المرقَى الى الجُلجلةْ
والصخرُ يا سيزيفُ ، ما أثقلَهْ!
سيزيفُ ، إن الصخرةَ الآخرون...

سعدي يوسف

في السوق القديم

ـ ١ ـ

الليل ، والسوق القديم

خفتت به الأصوات إلا غمغمات العابرين

وخطى الغريب وما تبثُّ الريح من نغم حزين

في ذلك الليل البهيم .

الليل ، والسوق القديم ، وغمغمات العابرين ؛

والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب ،

ـ مثل الضباب على الطريق ـ

من كل حانوت عميق ،

بين الوجوه الشاحبات ، كأنه نغم يذوب

في ذلك السوق القديم .

- ٢ -

كم طاف قبلي من غريب ،
في ذلك السوق الكئيب .
فرأى ، وأغمض مقلتيه ، وغاب في الليل البهيم .
وارتجَ في حلق الدخان خيال نافذة تضاء ،
والريح تعبث بالدخان...
الريح تعبث ، في فتور واكتئاب ، بالدخان ،
وصدى غناء...
ناءٍ يذكّر بالليالي المقمرات وبالنخيل ؛
وأنا الغريب... أظلّ أسمعه وأحلم بالرحيل
في ذلك السوق القديم .

- ٣ -

وتناثر الضوء الضنيل على البضائع كالغُبار ؛
يرمي الظلال على الظلال ؛ كأنها اللحن الرتيب ،
ويُريق ألوان المغيب الباردات ، على الجدار
بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب .
الكوب يحلم بالشراب وبالشفاه
ويدٍ تلوّنها الظهيرة والسراج أو النجوم .

ولربما بردتْ عليه وحشرجت فيه الحياة ،
في ليلة ظلماء باردة الكواكب والرياح ؛
في مخدع سهر السراجُ به ، وأطفأه الصباح

ـ ٤ ـ

ورأيت ، من خلل الدُّخان ، مشاهد الغد كالظلال .
تلك المناديل الحيارى وهي تومىء بالوداع
أو تشرب الدمع الثقيل ، وما تزال
تطفو وترسب في خيالي ـ هوَّم العطر المضاع
فيها ، وخضّبها الدم الجاري!
لون الدجى وتوقُّد النارِ
يجلو الأريكة ثم تخفيها الظلال الراعشاتْ ـ
وجه أضاء شحوبه اللهبُ
يخبو ، ويسطع ، ثم يحتجبُ
ودم يغمغم وهو يقطر ثم يقطر : مات... ماتْ!

ـ ٥ ـ

الليل ، والسوق القديم ، وغمغمات العابرين ،
وخطى الغريب .
وأنت أيتها الشموع ستوقدين

في المخدع المجهول ، في الليل الذي لن تعرفيه ،
تلقين ضوءك في ارتخاءٍ مثل امساء الخريف
ـ حقل تموج به السنابل تحت أضواء الغروب
تتجمع الغربان فيه ـ
تلقين ضوءك في ارتخاء مثل أوراق الخريف
في ليلة قمراء سكرى بالأغاني ، في الجنوب :
نقر [الدرابك] من بعيد
يتهامس السعف الثقيل ، به ، ويصمت من جديد!

ـ ٦ ـ

قد كان قلبي مثلكن ، وكان يحلم باللهيب ،
حتى أتاح له الزمان يداً ووجهاً في الظلام
نار الهوى ويد الحبيب ـ
مازال يحترق الحياة ، وكان عام بعد عام
يمضي ، ووجه بعد وجه مثلما غاب الشراع
بعد الشراع ـ وكان يحلم في سكون ، في سكون :
بالصدر ، والفم ، والعيون ؛
والحب ظلله الخلود... فلا لقاء ولا وداع
لكنه الحلم الطويل
بين التمطي والتثاؤب تحت أفياء النخيل .

- ٧ -

بالأمس كان وكان - ثم خبا ، وأنساه الملال
واليأس ؛ حتى كيف يحلم بالضياء - فلا حنين
يغشى دجاه ، ولا اكتئاب ، ولا بكاء ، ولا أنين
الصيف يحتضن الشتاء ، ويذهبان... وما يزال
كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح ،
كالسلم المنهار ، لا ترقاه في الليل الكئيب
قدم ، ولا قدم ستهبطه إذا التمع الصباح .
مازال قلبي في المغيب
مازال قلبي في المغيب فلا أصيل ولا مساء ،
حتى أتت هي والضياء!

- ٨ -

ما كان لي منها سوى أنا التقينا منذ عام
عند المساء ، وطوقتني تحت أضواء الطريق
ثم ارتخت عني يداها وهي تهمس - والظلام
يحبو ، وتنطفىء المصابيح الحزانى والطريق - :
«أتسير وحدك في الظلام ؟
أتسير ؛ والأشباح تعترض السبيل ، بلا رفيق ؟ »

فأجبتها والذئب يعوي من بعيد ، من بعيد
أنا سوف أمضي باحثاً عنها ، سألقاها هناك
عند السراب وسوف أبني مخدعين لنا هناك » .
قالت ـ ورَّجع ما تبوح به الصدى « أنا من تريد! »

ـ ٩ ـ

« أنا من تَريد ، فأين تمضي ؟ فيم تضرب في القفار
مثلَ الشريد ؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار .
أنا من تريد ... » وقبلتني ثم قالت ـ والدموع
في مقلتيها ـ « غير أنك لن ترى حلم الشباب :
بيتاً على التل البعيد يكاد يخفيه الضباب
لولا الأغاني ، وهي تعلو نصف وسنى ، والشموع
تلقى الضياء من النوافذ في ارتخاء ؛ في ارتخاء!
أنا من تريد وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل :
حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل ،
لا يأس فيه ولا رجاء .

ـ ١٠ ـ

أنا أيها النائي القريب ،
لك أنت وحدك ؛ غير أني لن أكون

لك أنت ـ أسمعها ؛ وأسمعهم ورائي يلعنون
هذا الغرام . أكاد أسمع أيها الحلم الحبيب
لعنات أُمي وهي تبكي . أيها الرجل الغريب
إني لغيرك... بيد أنك سوف تبقى ، لن تسيرا
قدماك سُمِّرتا فما تتحركان ؛ ومقلتاك
لا تبصران سوى طريقي ، أيها العبد الأسيرا ؟

*

« ـ أنا سوف أمضي فاتركيني : سوف ألقاها هناك
عند السراب »
فطوقتني وهي تهمس : « لن تسيرا »

ـ ١١ ـ

« أنا من تريد ؛ فأين تمضي بين أحداق الذئاب
تتلمّس الدرب البعيد ؟ »
فصرختُ : سوف أسير ، مادام الحنين إلى السراب
في قلبي الظامي! دعيني أسلك الدرب البعيد
حتى أراها في انتظاري : ليس أحداق الذئاب
أقسى عليَّ من الشموع
في ليلة العرس التي تترقبين ، ولا الظلام

والريح والأشباح ، أقسى منك أنتِ أو الأنام!

أنا سوف أمضي! فارتخت عني يداها ، والظلام

يطغى ...

ولكني وقفت وملء عينيَ الدموع!.

١٩٤٨/١١/٣

سوف أمضي

سوف أمضي . أسمعُ الرِّيح تُناديني بعيداً
في ظلام الغابةِ اللفّاء... والدَّرْبُ الطويل
يتمطى ضَجَراً ، والذئبُ يعوي ؛ والأفول
يسرقُ النَّجمَ كما تسرق روحي مُقلتاك
فاتركيني أقطع الليل وحيداً
سوف أمضي ، فهي مازالت هُناكَ .
في انتظاري .

●

سوف أمضي . لا هديرُ السيلِ صخَّاباً رهيباً
يُغرق الواديَ ، ولا الأشباحُ تُلقيها القبورُ
في طريقي تسأل الليلَ إلى أين أسير -
كلُّ هذا ليس يثنيني ، فعودي واتركيني ،

ودعيني أقطع الليل غريباً .
إنَّها ترنو إلى الأفق الحزينِ
في انتظاري .

سوف أمضي . حوِّلي عينيك لا ترني إليّا!!
إن سحراً فيهما يأبى على رجلي مسيراً ،
إن سراً فيهما يستوقف القلب الكسيرا ،
وارفعي عني ذراعيك... فما جدوى العناق
إن يكن لا يبعث الأشواق فيّا ؟
اتركيني . ها هو الفجر تبدّى ، ورفاقي
في انتظاري .

١٩٤٨

في ليالي الخريف

في ليالي الخريف الحزين ،
حين يطغى على الحنين
كالضباب الثقيل
في زوايا الطريق
في زوايا الطريق الطويل ؛
حين أخلو وهذا السكون العميق ـ
توقد الذكريات ،
بابتساماتك الشاحبات ،
كل أضواء ذاك الطريق البعيد
حيث كان اللقاء
في سكون المساء
هل يعود الهوى من جيد ؟
عاهديني إذا عاد... ياللعذاب!

عاهديني... ومرت بقايا رياح
بالوريقات ؛ في حيرة واكتئاب
ثم تهوي حيال السراج الحزين .
انتهينا... أما تذكرين ؟
انتهينا... وجاء الصباح
يسكب النور فوق ارتخاء الشفاه
وانحلال العناق الطويل ،
أين آلام يوم الرحيل ؟
أين لا «لست أنساك» واحسرتاه ؟

●

في ليالي الخريف
حين أصغي ، ولا شيء غير الحفيف
ناحلاً كانتحاب السجين
خاف أن يوقظ النائمين
فانتحى في الظلام
يرقب الأنجم النائيات
حجبتها بقايا غمام
فاستبدت به الذكريات
الغناء البعيد البعيد
في ليالي الحصاد ،

اوجه النسوة الجائعات ...

ثم يعلو رنين الحديد

يسلب البائس الرقاد!

في ليالي الخريف

حين اصغي وقد مات حتى الحفيف

والهواء -

تعزف الأمسيات البعاد

في اكتئاب يثير البكاء ،

شهرزاد[1]

في خيالي فيطغى عليّ الحنين ؛

أين كنا ؟! أما تذكرين ؟

أين كنا ؟! أما تذكرين المساء ؟!

●

في ليالي الخريف الطوال ؛

آه لو تعلمين

كيف يطغى عليّ الأسى والملال! ؟

في ضلوعي ظلام القبور السجين ،

في ضلوعي يصيح الردى

---

(١) قطعة موسيقية ، للموسيقار الروسي ريمسكي كورساكوف .

بالتراب الذي كان أمي : «غدا
سوف يأتي . فلا تقلقي بالنحيب
عالم الموت حيث السكون الرهيب!»
سوف أمضي كما جئت واحسرتاه!
سوف أمضي... ومازال تحت السماء
مستبدون يستنزفون الدماء ،
سوف أمضي وتبقى عيون الطغاة
تستمد البريق
من جذى كل بيت حريق
والتماع الحراب
في الصحارى ، ومن أعين الجائعين ،
سوف أمضي... وتبقى فيا للعذاب!
سوف تحيين بعدي ، وتستمتعين
بالهوى من جديد ،
سوف أنسى وتنسين الآ صدى
من نشيد
في شفاه الضحايا ـ وإلا الردى .

١٩٤٨/٩/١٧

أغنية قديمة

- ١ -

في المقهى المزدحم النائي ، في ذات مساء ،
وعيوني تنظر في تعب ،
في الأوجه ، والأيدي ، والأرجل ، والخشب :
والساعة تهزأ بالصخب .
وتدق - سمعت ظلال غناء ...
أشباح غناء ...
تتنهد في الحان ، وتدور كإعصار
بال مصدور ،
يتنفس في كهف هار
في الظلمة منذ عصور!

- ٢ -

أغنية حب ... أصداء
تنأى... وتذوب... وترتجف
كشراع ناء يجلو صورته الماء
في نصف الليل... لدى شاطىء احدى الجزر ؛
وأنا أصغي... وفؤادي يعصره الأسف :
لِمَ يسقط ظل يد القدر
بين القلبين ؟! لم أنتزع الزمن القاسي
من بين يدي وأنفاسي ،
يمناك ؟! وكيف تركتك تبتعدين... كما
تتلاشى الغنوة في سمعي... نغما... نغما ؟!

- ٣ -

آه ما أقدم هذا التسجيل[١] الباكي
والصوت قديم ؛
الصوت قديم
مازال يولول في الحاكي .

---

(١) الأسطوانة .

الصوت هنا باق ؛ أما «ذات» الصوت :
القلب الذائب إنشاداً
والوجه الساهم كالأحلام ، فقد عادا
شبحاً في مملكه الموت ـ
لا شيء ـ هنالك في العدم .
وأنا أصغي... وغداً سأنام عن النغم!
أصغيت... فمثل إصغائي
لي وجه مغنية كالزهرة حسناءِ
يتماوج في نبرات الغنوة ، كالظل
في نهر تقلقه الأنسام ؛
في آخر ساعات الليل ،
يصحو... وينام .
أأثور ؟! أأصرخ بالأيام ؟! وهل يجدي ؟!
إنا سنموت
وسننسى ، في قاع اللحد ؟
حباً يحيا معنا... ويموت!

ـ ٤ ـ

ذرات غبار
تهتز وترقص ، في سأم ،

في الجو الجائش بالنغم ،

ذرات غبار!

الحسناء المعشوقة مثل العشاق

ذرات غبار!

كم جاء على الموتى ـ والصوت هنا باق ـ

ليل... ونهار!!

هل ضاقت ، مثلي ، بالزمن

تقويماً خط على كفن ،

ذرات غبار ؟! ؟

١٩٤٨/٧/٢٠

ذكرى لقاء

قد انتصف الليل ، فاطو الكتاب
عن الريح والشمعة الخابية
فعيناك لا تقرآن السطور
ولكنها العلة الواهية
فأنت ترى مقلتيها هناك
وذكرى من الليلة الماضية
فتطوي على ركبتيك الكتاب
وترنو إلى الأنجم النائية

*

هنا أنت بين الضياء الضئيل
وبين الدجى في الفضاء الرحيب

وكم من مصابيح تفنى هناك
تنير الثرى والفراغ الرهيب
مصابيح كانت تذوب
وتنحل في شعرها :
خطانا ، ولون الغروب ،
وما ضاع من عطرها .
وتُلقي على ذكريات الشتاء
ستاراً من الأدمع الراجفة
فتخبو مصابيحهن البعاد
بطيئاً... كما تبرد العاطفة
كما افترقت ، يوم حان الرحيل
يد صافحتها يد واجفة
كرجع الخطى في الطريق البعيد ،
كما انحلت الرغبة الخائفة

*

وتصغي ولا شيء إلا السكون
وإلا خطى الحارس المتعب
وإلا ارتعاش الضياء الضنيل
وخفق الظلال على المكتب

وأسفارك البالية
كأشباح موتى تنسير
حيارى إلى الهاوية
— وحلم ادكار قصير —
وتنساب مثل الشراع الكئيب
وراء الدجى ؛ روحك الشاردة
ترى وجهها كالتماع النجوم
وتطويه عنك اليد الماردة
إلى أن يذوب الضباب الثقيل
وتنهار ألوانه الجامدة
فها أنت ذا تستعيد اللقاء
كما عادت الجثة الباردة

*

وتمتد يمناك نحو الكتاب
كمن يَنشُد السلوة الضائعة
فتبكي مع العبقري المريض[1]
وقد خاطب النجمة الساطعة :

---

(١) الشاعر الانكليزي جون كيتس مات مسلولاً في الخامسة والعشرين من عمره ، وآخر ما كتبه قصيدته التي يخاطب بها كوكباً في السماء .

«تمنيت يا كوكب
ثباتا كهذا ـــ أنام
على صدرها في الظلام
وأفنى كما تغرب»
ويَغشى رؤاك الضياء القديم
بطيئاً... كما سارت القافلة
ترى الباب مثل انعكاس المغيب
على صفحة الجدول الناحلة
ويغشى رؤاك الضياء القديم
ينير لك الغرفة الآفلة
ويغشى رؤاك الضياء القديم
فيا لانتفاضتك الهائلة!

*

ترى الباب ألقى عليه الأصيل
ظلالاً من الكرمة العارية
فما كان غير اعتناق طويل
عصرنا به القوة الباقية
وألقيتُ عبء السنين
ورأسي ، على صدرها

فشدت عليه اليمين

وأدنته من ثغرها...

وأيقنت أن الحياة ؛ الحياة

ـ بغير الهوى ـ قصة فاترة

واني بغير التي ألهبت

خيالي بأنفاسها العاطرة...

شريد يشق ازدحام الرجال

وتخنقه الأعين الساخرة

حدائق وفيقة

لوفيقه

في ظلام العالم السفليّ حقلُ

فيه مما يزرع الموتى حديقه

يلتقي في جوها صبح وليلُ

وخيال وحقيقه

تنعس الأنهار فيها وهي تجري .

مثقلات بالظلال

كسلال من ثمار ، كدوال

سُرّحت دون حبال .

كل نهر

شرفَة خضراء في دنيا سحيقه .

ووفيقه

تتمطى في سرير من شعاع القمر

زنبقي أخضر ،

في شحوب دامع ، فيه ابتسامْ

مثل أفق من ضياء وظلامْ

وخيال وحقيقه .

أي عطر من عطور الثلج وانِ

صعَدته الشفتان

بين أفياء الحديقه

يا وفيقه ؟

والحمامُ الأسودُ

يا له شلالَ نور منطفي!

ياله نهر ثمار مثلها لم يُقطفِ!

يا له نافورةً من قبر تموز المدمَى تصعدُ!

والأزاهير الطوال ، الشاحبات ، الناعسه

في فتور عصَرت أفْريقيا فيه شذاها

ونداها ،

تعزف النايات في أظلانها السكرى عذارى لا نراها

روَحت عنها غصون هامسه .

ووفيقه

لم تزل تثقل جيكور رؤاها .

آه لوَ روّى نخيلاتِ الحديقة

من بويب كركرات! لو سقاها

منه ماء المد في صبح الخريف!
لم تزل ترقب باباً عند أطراف الحديقة
ترهف السمع إلى كل حفيف!
ويحها... ترجو ولا ترجو وتبكيها مناها :
لو أتاها...!
لو أطال المكث في دنياه عاماً بعد عامِ
دون أن يهبط في سلّم ثلجٍ وظلامِ!
ووفيقه
تبعث الأشذاء في أعماقها ذكرى طويلة
لعشيش بين أوراق الخميلة
فيه من بيضاته الزرق اتقاد أخضرُ
(أي أمواج من الذكرى رفيقه)
كلما رفَّ جناحٌ أسمر
فوقها والتم صدر لامعاتٌ فيه ريشاتٌ جميلة
أشعل الجوَّ الخريفيَّ الحنانُ
واستعاد الضمّة الأولى وحواءَ الزمانُ .
تسأل الأمواتَ من جيكور عن أخبارها ،
عن ربُاها الربد ، عن أنهارها .
آه والموتى صموتٌ كالظلامِ
أعرضوا عنها ومروا في سلامِ
وهي كالبرعم تلتف على أسرارها .

والحديقة

سقسق الليلُ عليها في اكتنابِ

مثلَ نافورة عطرٍ وشرابِ

وخيال وحقيقة

بين نهديكِ ارتعاش يا وفيقه

فيه بَرْدُ الموت باكِ

واشرأبّت شفتاكِ

تهمسان العطر في لَيل الحديقة .

١٩٦١/٨/١٢

أم البروم

(المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة)

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها.
تطاردها ، وراء الليل ، أشباح الفوانيسِ
سمعت نشيج باكيها ،
وصرخة طفلها ، وثغاء صادٍ من مواشيها ،
وفي وهج الظهيرة صارخاً «يا حاديَ العيسِ»
على ألم مغنّيها .
ولكن لم أرَ الأموات يطردهنّ حفّارُ .
من الحفر العتاق وينزع الأكفان عنها أو يغطيها ـ
ولكن لم أر الأموات ، قبل ثراك ، يُجليها
مجونُ مدينةٍ ، وغناء راقصةٍ ، وخمّارُ .
يقول رفيقي السكران : «دعها تأكل الموتى
مدينتنا لتكبر ، تحضن الأحياء ، تسقينا

شراباً من حدائق برسفون[1] ، تعلّنا حتى
تدور جماجمُ الأموات من سُكْرٍ مشى فينا! »
مدينتنا منازلها رحىً ودروبها نارُ ،
لها من لحمنا المعروك خبزٌ ، فهو يكفيها...
علام تمدّ للأموات أيديها ، وتختارُ ،
تلوك ضلوعَها وتقينها للريح تسفيها ؟
تسلّل ظلّها الناريّ من سِجْن ومستشفى
ومن مبغى ومن خمارةٍ... من كلّ مافيها ،
وسار على سلالم نومنا زحفا
ليهبط في سكينة روحنا ألماً فيبكيها .
وكانت ، إذ يُطلّ الفجر ، تأتيك العصافيرُ
تساقَطُ ، كالثمار على القبور ، تنقّر الصمتا
فتحلم أعين الموتى
بكركرة الضياء وبالتلال يرشّها النورُ ،
وتسمع ضجةَ الأطفال أُمّ ثلاثةٍ ضاعوا
يتامى في رحاب الأرض : ان عطشوا وإن جاعوا
فلا ساقٍ ولا من مُطعمٍ ، في الكوخ ظلوا واعتلى النعش
رؤوسَ القوم والاكتاف... افئدةٌ وأسماعُ
ولا عينٌ ترى الأمَّ التي منها خلا العشّ .

(١) ابنة آلهة الخصب اليونانية ، اختطفها بلوتو سيد العالم السفلي ، عالم الموتى ، فصارت تعيش معه هناك

وفي الليلِ
إذا ما ذرذر الأنوارَ في أبدٍ من الظلمة ،
ودبّتْ طفلة الكفّين ، عارية الخطى ، نسمه
تلمّ من المدينة ، كالمحار وكالحصى من شاطىء رملِ ،
نثار غنائها وبكائها ـ لم تترك العتمة
سوى زَبَدٍ من الأضواء منثور
يذوب على القبور ، كأنه اللِبنات في سورِ
يباعد عالمَ الأموات عن دنيا من الذلّ ،
من الأغلال ، والبوقات ، والآهات ، والزُحمه .
وأوقدت المدينة نارها في ظلّة الموتِ
تقلّع أعينَ الأموات ثم تدسُّ في الحفرِ
بذور شقائق النعمان ، تزرع حبّة الصمتِ
لتثمر بالرنين من النقود ، وضجّة السفر ،
وقهقهة البغايا والسكارى في ملاهيها .
وعصّرت الدفين من النهود بكلِ أيديها
تمزّقهن بالعجلات والرقصات والزُمُرِ
وتركلهنّ كالأكَر
تفجرها الرياح على المدارج في حواشيها
وحيث تلاشت الرعشات والأشواق والوجد
وعاد الحب ملمس دودة وأنين أعصار ،
تثاءبت المدينة عن هوىً كتوقّد النارِ

تموت بحرِّها ورمادها ودخانها الهاري ،
ويا لغة على الأموات أخفى من دُجى الغابةْ
تردّدها المقاهي : «ذلك الدلال جاء يريد أتعابه»
إذا سمعوك رنَّ كأنه الجرس الجديد يرن في السحَر
صدى من غمغمات الريف حول مواقد السَمَر :
«إذا ما هزت الأنسام مهد السنبل الغافي
وسال أنين مجدافِ
كأن الزورق الأسيان منه يسيلُ في حُلُم ،
عصرتُ يديَّ من ألَمِ» .
فأين زوارق العشاق من سيارة تعدو
ببنت هوى ؟ وأين موائدُ الخمار من سهل يمد موائد القَمَر ؟
على أمواتك المتناثرين بكلِّ مُنحَدَرِ
سلامٌ جال فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ ،
على المتبدّلات لحودُهُمْ والغاديات قبورُهم طُرقا
وطيبُ رقادهم أرَقا
يحنّ إلى النشور ويحسب العَجَلات في الدرب
ويرقب مَوْعدَ الربّ .

١٩٦١/٧/٢١

صياح البط البري

وذرَى سكونَ الصباحِ الطويلْ
هُتافٌ من الدِّيك لا يصدأُ
وهزّ الصدى سَعَفاتِ النخيلْ
وأشرقَ شبّاكُنا المطفأُ .
هتافٌ سمعناه منذ الصِّغَرْ
سمعناه حتى نموتْ
يمرّ على عَتَبَاتِ البيوت
فيرسمُ أبوابَهَا والحُجَرْ
ولا يهدأ
إلى أنْ تسيرَ الحقولْ
إلينا فنقطفَ منها الثمرْ

وعند الضحى وانسكاب السماء
على الطِّين والعُشْبَةِ اليابسه ،
يشقّ إلينا غصونَ الهواء
صياحٌ ، بكاءٌ ، غناءٌ ، نداء
يُبشّر شطآننا اليائسه
بأنَ المَطَرْ
على مَهْمهِ الرِّيح مدَّ القلوعْ ،
هو البطّ... فَلْتَهنأي يا شموعْ
بموتٍ به تعرفين الحياةَ
به تعرفين ابتسامَ الدموعْ :
نذوراً تذوبين ، للأولياءْ .

صياحٌ... كأنَ الصِّياحْ
ينشّرُ ، مما انطوى من رياح ،
سهولاً وراءَ السهول
أزاهيرُها في الدجى من نباح
وعند النهار خُزامى ، أقاحْ
وختميّةٌ ما لها من ذيول...
ينشّرُ في شاطىءٍ مُشمسِ
من القَصَبِ الكثّ غاباً له عَذَبات تطولْ .

صياحُ كأجراس ماءٍ... كأجراس حقلٍ من النرجسِ
يُدنْدِنَ والشمسُ تُصغي ، يقولْ
بأنَ المطرْ
سيهطلُ قبل انطواء الجناح
وقبل انتهاء السّفَرْ...

١٩٦٢/٣/١٨

المعبد الغريق

خيولُ الريح تصهلُ ، والمرافئ يَلْمسُ الغَرْبُ
صواريَها بشمس من دمٍ ، ونوافذُ الحانَه
تراقَصُ من وراء خِصاصها سُرُجٌ ، وجمّع نَفْسَه
الشَرْبُ
بخيْط من خيوط الخوْف مشدوداً إلى قنّينةٍ ، ويمدّ آذانه
إلى المتلاطم الهدّار عند نوافذ الحانه .
وحدّث - وهو يهمس جاحظَ العَيْنَيْن ، مرتعدا ،
يعبّ الخَمْرَ - شيخٌ عن دجىً ضافٍ وأدغال
تلامحَ وَسْطَها قَمَرُ البحيْرةِ يلثم العَمَدا...
يمسّ البابَ من جنبات ذاك المَعْبَدْ الخالي
طواهُ الماءُ فى غَلَس البحيرةِ بَيْن أحراش مبعثرَةٍ
وأدغالٍ .

هنالك قَبْلَ ألْفٍ ، حينَ مجّ لظاه من سَقَرِ
فمٌ يتفتّح البُرْكان عنه فتنفضُ الحُمّى
قرارةَ كلِّ ما في الوادِ من حَجَرٍ على حَجَرِ ،
تفجَّر باللظى رَحِمُ البحيرة ينثر الأسماكَ والدمَ ،
مُرْغياً سُمّا
وقرَّ عليه كلْكلْ معبدٍ عصفتْ به الحمّى .
تطفأ في المباخر جَمْرُها وتوهّجَ الذّهَبُ
ولاح الدُرّ والياقوت أثماراً من النورِ ،
نجوماً في سماء الماء تزحفُ دونها السّحبُ
تمرّغَ فوْقَها التمساحُ ثم طفا على السّورِ
ليحرس كنزَه الأبديَّ حتى عن يد الظلماء والنور

وأرسى الأخطُبوطُ فنارَ مَوْتٍ يرصد البابا ،
سجا في عينهِ الصّوْراء صُبْحٌ كان في الأزَلِ...
تهزّأ بالزمان ، يمرّ ليْلٍ بعد ليلٍ وهو ما غابا
ففيمَ غرورُ هذا الهالكِ الإنسان ، هذا الحاضرِ المشدود
بالأجَلِ ؟
أعمّرَ ألفَ عامٍ ؟ ليته شهد الخلائق وهي تعبر شُرْفَةَ الأزَلِ ؟

*

ألا يا لَيْتَه شهِدَ السلاحِفَ : تسحقُ الدّنيا
قياصرَها ، ويمنع دِرْعُها ما صوبَ الزَمنُ
إليها من سهام الموت!

لكنَ الذي يحيا
بقلْبٍ يعبر الآبادَ ، يكسر حدّه الوَهَنُ
فيصمتُ ، عُمْرُه أزَلٌ يمسْ حدودَه أبَدٌ من الأكوان
في دنيا

هنالك ألفُ كنزٍ من كنوزِ العالَم الغرْقى
ستُشبعُ ألفَ طفْلٍ جائعٍ وتُقيل آلافاً من الداءِ
وتُنقذُ ألف شعْبٍ من يد الجلاّد ، لو تَرْقى
إلى فَلَكِ الضمير!

أكلّ هذا المال في دنيا الأرقّاءِ
ولا يتحرّرون ؟ وكيف وهو يُصفِّدُ الأعناقَ ،
يربطها إلى الداء ؟

كأنّ الماءَ في ثَبَجِ البحيرةِ يمنعُ الزّمنا
فلا يتقحَمُ الأغوارَ ، لا يخطو إلى الغُرَفِ .
كأنّ على رِتاج الباب طلَّسْماً ، فلا وَسَنا
ولكنْ يقظةٌ أبَدٌ ، ولا مَوْت يحدّ حدودَ ذاك الحاضر
الترفِ

كأنَ تهجُّد الكُهّان نبعٌ في ضمير الماء يدفق منه
للغُرَفِ .

إذنْ ما عاد من سَفَر إلى أهليه عوليسُ...
إذنْ فشراعه الخفّاقُ يزرع فائرَ الأمواجْ
بما حَسَب الشهورَ وعدّ حتّى هدّهُ البؤسُ .
فيا عوليس... شابَ فتاك ، مَبْسم زَوْجِكَ الوهّاج
غدا حَطَباً . ففيم تعود ، تفري نحو أهلك أضلعَ الأمواجْ
هلُمّ فماد شيني[1] في انتظاركَ يحبس الأنفاسْ
فما جرحتْه نَقْرةُ طائرٍ أو عكرته أناملُ النّسمِ .

هلُم فإنَ وَحْشاً فيه يحلم فيكَ دونَ الناسْ
ويخشى أن تفجِّرَ عَيْنَه الحمراءَ بالظلمِ
وأنَّ كنوزَهُ العذراء تسأل عن شراعك خافقَ النّسَمِ .
أما فجعتْك في طروادةَ الآهاتُ من جَرْحى
ومحتضرين ؟

يا لدمٍ أريقَ فلطّخ الجدْرانْ
وردّ ترابَها الظمآن طيناً ، ردّه جُرْحا

(١) بحيرة في الملايو غرق المعبد الى قرارتها .

كبيراً واحداً ، جرْحاً تفتح في حشا الإنسان
ليصرخَ بالسماء .
فيا لصوتٍ ردّدته نوافذُ الحجُرات والجدران :

«لأجْلِ فُجورِ أُنثى واتّقادِ مُتوَّجٍ بالثارْ
تخضبُ من دمِ المُهُجات حتى سُلمُ الأفقِ ؛
وحل بلا أوانٍ يومّنا ، وتساوت الأعمار
كزرع منه ساوى منجلُ...
وهناك في الشَفَقِ
تنوحُ نساؤنا المترمّلات ، يُوَلوِل الأطفال عند مدارج الأفق» .

هلمّ فقد شهدتُ ، كما شهدتَ ، دماً وأشلاءا :
تفجَّر في بلادي قُمقُمُ ملأته بالنارِ
دهورُ الجوع والحرمان .
أيَّ خليقةٍ قاءا ؟
رأينا أنّ أفئدةَ التّتار ، وأذْؤبَ الغارِ
أرقّ من الرّعاع القالعينَ نواظرَ الأطفال والشاوينَ بالنار
شفاهَ الحُلْمةِ العذراء .
يا نَهراً من الحِقْدِ
تدفَقَ بالخناجر والعِصيِّ ، بأعْينٍ غضبى :
نجوماً في سماء شدّها قابيلُ بالزّنْدِ .

فليتّك حين هزّ الموصِلَ الأعصارُ (لا دَرْباً
ولا بيْتاً ، ولا قبْراً نجا فيها) شهدتَ الأعْيُنَ الغَضبى
وليتك في قطارٍ مرّ حين تنفّس السَحَرُ
فقصّ ، على سرير السكّةِ الممدود ، أمراسا
تعلّقَ في نهايتهنّ جِسْمٌ يحصدُ النَّظَرُ
عليه الجُرْحَ بعد الجُرْح بعد الجرح أكْداساً
ليهويَ جسم «حفصة» لابساً فوق النجيع دماً وأمراساً .

وفيمَ نخافُ في ثَبَجِ البحيْرة أو حفافيها
كواسج ضارياتٍ أو تماسيحَ التظتْ لَهبَا
نواجذُها الحديدة ؟ فيم تخشى كلّ ما فيها ؟
فإنّ عقارب الرقّاع يُضمر سمّها العَطبَا
وتزرع في الجسوم أزاهرَ الدم والجراحَ بلا دم لَهَبها

هلُمّ نشقّ في الباهَنْج حقلَ الماء بالمجذافْ
وننثر أنْجُمَ الظلماء ، نُسقطُها إلى القاعِ
حصىً ما ميّزتْه العيْنُ عن فَيْروزه الرقّاف
ولؤلؤهِ المنقّطِ بالظلام .
سنُرعب الراعي
فيُهرع بالخرافِ إلى الحظيرةِ خَوْفَ أن يغرقْنَ في القاعِ .

هلُمَّ فَلَيْلُ آسيةَ البعيد مداه ، يدعونا
بصوتٍ من نُعاس ، من ردىً ، من سجْع كُهّانِ .
هلُمّ... فما يزال الدهرُ بين أيدينا .
لنطْوِ دُجاه قبل طلوع شمسٍ دونَ ألوانِ
تبدِّد عالمَ الأحلام ، تُخْفِتُ ـ إذْ يرنَّ التِّبْرُ فيها ـ
سَجَعَ كُهّانِ!

*

يجول التِّبْرُ فيها مثل وَحْشٍ يأكلُ الموتى
ويشرب من دم الأحياء ، يسرق زادَ أطفالِ
ليتّقدَ اللظى في عَيْنه ، ليُعيره صَوْتا
يحطِّمُ صوتَ كلِّ الأنبياء هناك .
يا لرنين أغلالِ
ويا لصدىً من الساعات ، بالأكفان مسَّ رؤوسَ أطفالِ
وفلَّ عناقَ كلِّ العاشقين ، ودسَّ في القُبْله
مُدىً من حَشْرجات الموت ، ردَّ أصابعَ الأيْدي
أشاجعَ غابَ عنها لحمها ، وستائرُ الكُلّه
يحوِّلُها صفائح تحتها جُثثٌ بلا جِلْدِ
هلُمَّ فبَعْدُ ما لمح المجوسُ الكوكب الوَهّاج تُبْسَطُ
نحوه الأيدي
ولا ملأت حِراءَ وضُبْحَه الآياتُ والسّوَرُ .

هلُمَّ فما يزال زيوس يصبغ قمَّة الجَبَلِ

بخمرتِه ، ويُرسل ألف نسْرٍ نزَّ من أحداقِها الشَّرَرُ

لتخطف من يُدير الخمر يحمل أكؤسَ الصهباء

والعَسَل

هلُمَّ نزورُ آلهةَ البحيرة ،

ثم نرفعُها لتسكن قمَّةَ الجبل!

البصرة ١٧/ ٢/ ١٩٦٢

جيكور شابت

ما نفضْتُ الندى عن ذرى العُشْب فيها ،
ما لثمتُ الضبابَ الذي يحتويها ،
جنتُها والضَحى يزرع الشمس في كلّ حَقل وسطْحِ
مثلَ أعواد قَمْحِ .
فر قلبيَ إليها كطَيرٍ إلى عُشّه في الغروبِ .
هل تُراهُ استعاد الذي مرّ من عُمْرِهِ ، كل جُرْحِ
وابتسامٍ ؟
أبعد انطفاءِ اللهيبِ
يستطيع الرماد اتّقاداً ؟ ومن أين ؟ من أيّ جَمْرَه ؟
يا صباي الذي كان للكون عطراً وزهواً وتيها...
كان يومي كعامٍ ، تعدُّ المسرّه
فيه نبْضاً لقلبي تفجّر منها على كلِّ زهره .
كانت الأرض تلقى صباها لأوّل مرّه...

كان قابيلُها بذرةً مستتسِرّه...
كان للأرض قلبٌ ، أُحسُّ به في الدروب ،
في البساتينِ ، في كل نهْرٍ يُروّي بنيها .
آه جيكور ، جيكور...
ما للضّحى كالأصيلِ

يسحب النُّور مثلَ الجناحِ الكليل ؟
ما لأكواخكِ المقفرات الكئيبه
يحبس الظلُّ فيها نحيبَه ؟
أين أيْنَ الصبايا يوسْوسْنَ بين النخيل
عن هوىً كالتماع النجوم الغريبة
أو يجرّرْنَ أذيالهن التي لوّنتْهنَّ أقمار صَيْف
أو شموسٌ خريفيَّةٌ ، عند شطٍّ ظليلِ
والشّفاهُ ابتساماتُ حبٍّ وخَوْف ؟ ؟ ؟
عجائزُ أو في القبور ـ ...
عجائزُ يغزلْنَ حول الصِّلاء
ويروينَ ، عَبْرَ الكرى والفتور ،
أقاصيصَ عن جنّةٍ في بيوتٍ خُواء ،
لأحفادهنَّ اليتامى .
وجيكور شابتْ وولى صباها
وأمسى هواها

رماداً ، إذا ما
تأوَّهْنَ هزّته ريحُ...
أثارته حتى ارتمى في صداها
هباءً وذراً تضيقُ الصدور
به عن مداها .
أين جَيْكورُ ؟
جيكور ديوانُ شعري ،
موعدٌ بين ألواح نعشي وقبري .
كرْكرات المِياه التي كسَّر الشمسَ منها ارتجافُ ،
والأنينُ الذي منه كنا نخافُ
صاعداً مثل مدّ تنزّ القبور
عنه ، والشمسُ تمتصّ من كلِّ نهر ،
ودرابك في الأرض تنقرهنّ البذور
وهي تنشقّ في كلِّ نهر ،
ودرابك في الأرض تنقرهنّ البذور
وهي تنشقّ في كلِّ فجُرِ -
ذكرياتٌ... كما يترك الصوت من ميِّتٍ
في خيالٍ رنينه
مثلُ ناي تشظّى وأبقى أنينه .
أيهِ جيكور ، عندي سؤالٌ ، أما تسمعينَه ؟
هل تُرى أنتِ في ذكرياتي دفينه

أم تُرى أنتِ قبر لها ؟ فابعثيها

وابعثيني

وهيهات! ما للصِّبا من رجوعِ .

إن ماضيَّ قبري واني قَبْرُ ماضيَّ ،

موتٌ يمدّ الحياةَ الحزينَه ؟

أم حياةٌ تمدّ الرَّدى بالدموع ؟

*

ما نفضتُ الندى عن ذرى العشب فيها .

جيكور ٢/٤/١٩٦٢

احتراق

وحتى حين أصهرُ جسمَكِ الحجريّ في ناري
وأنزع من يديكِ الثلج ، تبقى بين عَينينا
صحارى من ثلوج تُنهك الساري ،
كأنك تنظرين إليّ من سُدُمٍ وأقمارِ ،
كأنَّا ، منذ كنَّا ، في انتظارٍ ما تلاقيْنا .
ولكنّ انتظار الحبّ لُقيا... أين لقيانا ؟
تمزقَ جسمُك العاري...
تمزقَ ، تحت سَقْفِ الليل ، نَهْدُكِ بين أظفاري...
تمزقَ كل شيءٍ من لهيبي ، غيرَ أستارِ
تحجِّبُ فيك ما أهواهُ .
كأنّي أشرب الدمَ منك ملْحاً ، ظلّ عطشاناً
مَن أستسقاه . أين هواكِ ؟ أين فؤادكِ العاري ؟
أسدّ عليك بابَ الليل ثم أعانقُ البابا

فألثمُ فيه ظلّي ، ذكرياتي ، بعض أسراري...
وأبحثُ عنك في ناري
فلا ألقاكِ ، لا ألقى رمادكِ في اللّظى الواري .
سأقذف كل نفسي في لظاها ، كلّ ما غابا
وما حضرا .
أريدُك فاقتليني كي أُحِسّكِ .
واقتلي الحجرا
بفيض دمٍ ، بنارٍ منك... واحترقي بلا نارِ ؟

بيروت ـ ٢٦/ ١٠/ ١٩٦١

نداء الموت

يمدّون أعناقهم من ألوف القبور يصيحون بي :

أن تعال ،

نداء يشق العروق ، يهزّ المشاش ، يبعثر ُقلبي رمادا

«أصيل هنا مُشْعَل في الظلال

تعال اشتعل فيه حتى الزوال» .

جدودي وآبائي الأولون سراب على حد جفني تهادى .

وبي جذوة من حريق الحياة تريد المحال .

وغيلان يدعو «أبي سرْ ، فإني على الدرب ماشٍ أريد

الصباح» .

وتدعو من القبر أمّي «بنيَ احتضنّي فبرد الردى في عروقي

فدفءً عظامي بما قد كسوتُ ذراعيك والصدر ، واحم

الجراح

جراحي بقلبك أو مقلتيك ولا تحرفنَ الخطى عن طريقي

ولا شيء إلا إلى الموت يدعو ويصرخ ، فيما يزولْ ،
خريف ، شتاء ، أصيل ، أفولْ .
وباقٍ هو الليلُ بعد انطفاء البروقِ
وباقٍ هو الموت ، أبقى وأخلد من كل ما في الحياه .
فيا قبرها افتح ذراعيك...
إني لآتٍ بلا ضجّةٍ ، دون آه!

بيروت ٦/ ٥/ ١٩٦٢

حامل الخرز الملون

ماذا حملت لها سوى الخرز الملوّن والضباب ؟
ما خضتَ في ظلمات بحر أو فتحت كوى الصخور
والريح ما خطفت قلوعك ، والسحاب
ما بلّ ثوبك . ما حملتَ لها سوى الدم والعذاب .
في سجنها هي ، خلف سور .
في سجنها هي ، وهو من ألمٍ وفقر واغتراب .
عشر من السنوات مرّت وهي تجلس في ارتقاب :
أطفالها المتوثبون مع الصباح
صمتوا وكفُّوا عن مراح ،
زجرتهمُ لتُحسَ وقع خطاك . برعمت الزهور
وأتى الربيع وما أتيت ، وجاء صيفٌ ثم راح .
ماذا يعيقك في سواحل نائياتٍ؟ في قصور
قفر يعيش الغول فيها ، كلما رمت الرياح
بحطام صاريةٍ تحفّز ؟ ما يعيقك عن رجوع ؟

لم تبق للغد من دموع

في مقلتيها ، لا ولم يبق ابتسامٌ للّقاء!

ستعود ، حين تعود ، بالخرز الملوَّن والهباء ،

ستضم منها طيف أمس ، فلا يُجيبك في الضلوع

منها سوى دمك المفجَّع والخواء!

بيروت ٩/٥/١٩٦٢

ذكرتُك يا لميعةُ

ذكرتُك يا لميعةُ والدجى ثلجٌ وأمطارُ ،
ولندنُ مات فيها الليل ، مات تنفُسُ النورِ .
رأيتُ شبيهةً لك شعرها ظُلَمٌ وأنهارُ ،
وعيناها كينبوعين في غابٍ من الحورِ .
مريضاً كنت تثقل كاهلي والظّهر أحجارُ ،
أحِنُّ لريفِ جيكورِ
وأحلم بالعراق : وراء بابٍ سدّت الظلماءُ
باباً منه والبحر المزمجرُ قام كالسورِ
علي دربي .
وفي قلبي
وساوسُ مظلمات غابت الأشياء
وراء حجابهنّ وجفَّ فيها منبع النورِ .
ذكرتُ الطلعةَ السمراءْ ،

ذكرتُ يديك ترتجفان من فرقٍ ومن برد
تنزُّ به صحارى للفراق تسوطُها الأنواء .
ذكرتُ شحوب وجهك حين زمّر بوقُ سيّاره
ليؤذنَ بالوداع . ذكرتُ لذْع الدمع في خدّي
ورَعشةَ خافقي وأنينَ روحي يملأ الحاره
بأصداء المقابر . والدجى ثلجٌ وأمطار .

لندن ٢/١/١٩٦٣

منزل الأقنان

في جيكور

خرائبُ فانزعِ الأبواب عنها تغْدُ أطلالا ،
خوالٍ قد تصكُّ الريحُ نافذةً فتُشْرعها إلى الصّبْحِ
تُطلُّ عليكَ منها عينُ بومٍ دائبِ النَّوْحِ .
وسلَّمُها المحطّم ، مثل برجٍ داثرٍ ، مالا
يئنَ إذا أتتْه الريح تصعده إلى السَّطْحِ ،
سفينٌ تعرك الأمواجُ ألواحه

*

وتملأ رُحْبةَ الباحه
ذوائبُ سدرةٍ غبراءَ تزحمها العصافيرُ
تعدّ خطى الزمان بسقْسقاتٍ ، والمناقير

كأفواهٍ من الديان تأكل جثّةَ الصمتِ
وتملأ عالم الموتِ
بهَسْهسةِ الرثاء ، فتفزع الأشباح تحسب أنه النورُ
سيُشرق ، فهي تُمسك بالظلال وتهجر الساحه
إلى الغرف الدجيّةِ وهي توقظ ربّةِ البيتِ :
«لقد طلع الصباح» . وحين يبكي طفلها الشَبَحُ
تهدهدُه وتنشد : «يا خيول الموت في الواحه
تعالي واحمليني ، هذه الصحراء لا فرحُ
يرفّ بها ولا أمنٌ ولا حبّ ولا راحه» .

ألا يا منزلَ الأقنان ، كم من ساعدٍ مفتولْ
رأيتَ ومن خطىً يهتزّ منها صخرك الهاري!
وكم أغنيّةٍ خضراءَ طارت في الضحى المغسولِ
بالشمس الخريفيّه ،
تحدّث عن هوىً عاري
كماء الجدول الرقراق! كم شوقٍ وأمنيّه!!
وكم ألم طويْتَ وكم سُقيتَ بمدمعٍ جاري! ؟
وكم مهد تهزهز فيك : كم موْت وميلادِ
ونارٍ أوقدتْ في ليلة القرَ الشتائيه!!
يدنْدنُ حولها القصّاص : «يُحكى أنّ جنيّه...»
فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دَهَشٍ وإخلاد

كأنَ زنير آلاف الأسودِ يرنَ في وادِ
وقد ضلّوا حيارى فيه ، ثمّ ترنَ أغنيَه :
« أتى قمرُ الزمان... » ودندن القصّاص! « جنيَه »
وبؤسهم المرير : الجوع والأحزان والسَقَمُ
وطفلٌ مات لمّا جفَ درٌّ ـ ماتت المعزى
وجاعت أمّه فالثديُ لا لبنٌ ولا لَحَمُ .
سمعتُ صراخها والليل ينظر نجمُه غمْزا ،
ووَلْوَلةَ الأب المفجوع يخنق صوته الألَمُ

*

ولو خُيِّرْتُ أبدلتُ الذي ألقى بما ذاقوا ،
ممضَ ما أعاني : شُلَّ ظهرٌ وانحنتْ ساقُ .
على العكّاز أسعى حين أسعى ، عاثر الخطوات مرتجفا
غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحَدِ
بلا مال ، بلا أملٍ ، يقطِّعُ قلبَه أسفا .
ألستُ الراكضَ العدّاء في الأمس الذي سلفا ؟
أأمكث في ديار الثلج ثم أموت من كَمَدِ
ومن جوعٍ ومن داءٍ وأرزاءٍ ؟
أأمكث أم أعود إلى بلادي ؟ آه يا بلدي
وما أمل العليل لديْك شح المال ثم رَمَتْهُ بالداءِ
سهامٌ في يد الأقدار ترمي كل من عطفا

على المرضى وشدّ ضلوع الجائعين بصدره الواهي
وكفكَفَ أدمع الباكين يغسلُها بما وكفا
من العبرات في عينيْه ـ إلا رحمةُ اللّهِ ؟ ؟

*

ألا يا منزل الأقنان ، سقتْك الحيا سُحُبُ
تروي قبري الظمآن ،
تلثمه وتنتحبُ!

لندن ٣/١/١٩٦٣

قالوا لأيوب

قالوا لأيوبَ : «جفاك الآلهْ!»

فقال : «لا يجفو

من شدّ بالأيمان ، لا قَبضَتاه

تُرخى ولا أجفانُه تغفو» .

قالوا له : «والداء من ذا رماه

في جسمك الواهي ومن ثبّته ؟»

قال : «هو التفكيرُ عمّا جناه

قابيلُ والشاري سُدىً جنّته .

سيُهزَم الداء : غداً أغفو

ثمّ تفيقُ العينُ من غَفوَه

فأسحبُ الساقَ إلى خَلْوه

أسأل فيها اللّهَ أن يعفو .

عكّازتي في الماء أرميها

وأطرقُ الباب على أهلي .
إنْ فتحوا البابَ فيا وَيْلي
من صرخةٍ ، من فرحة مسّتْ حوافيها
دوّامةَ الحُزْنِ... وأأيوبُ ذاكْ ؟
أم أن أمنيته
يقذفُها قلبي ، فألفيها
ماثلةً في ناظري حيّه ؟
غيلان ، يا غيلان ، عانقْ أباكْ! »

*

يا ربِّ لا شكوى ولا من عتاب ،
ألستَ أنت الصانعَ الجِسْما ؟
فمن يلوم الزارع التَمّا
من حوله الزرعُ ، فشاء الخراب
لزهرةٍ والماءَ للثانيه ؟
هيهات تشكو نفسيَ الراضيه .
إني لأدري أنّ يومَ الشفاء
يلمحُ في الغيْبِ ،
سينزع الأحزانَ من قلبي
وينزع الداءَ ، فأرمي الدواء ،
أرمي العصا ، أعدو إلى دارنا وأقطف الأزهار في دَرْبي

ألمّ منها باقةً ناضره
أرفعُها للزوجةِ الصابره
وبيْنها ما ظلّ من قلبي!

درم ٦/ ١/ ١٩٦٢

هرم المغني

بالأمسِ كنتُ إذا كتبتُ قصيدةً فرحَ الدمُ
فأغمغمُ
وأهيم ما بين الجداول والأزاهر والنخيلْ
أشدو بها ، أترنَّمُ :
زادٌ لروحي منذ سَقْسقةِ الصباح إلى الأصيل .
زادٌ... ولكنْ عنه قد صدفت ، تجوع ولا تريدْ
ما يُنعش الآمالَ فيها ،
هي حشرجاتُ الروح أكتبها قصائد لا أفيد
منها سوى الهُزْء المرير على ملامحِ قارئيها .

هَرِمَ المغنّي ، هدّ منه الداءُ فارتبكَ الغناءْ .
بالأمس كان إذا ترنّم يُمسك اللّيْلُ الطروبْ
بنجومه المترنّحات فلا تخرّ على الدروب ،

واليوم يهتف ألفَ آهٍ لا يهزُّ مع المساء
سَعَفَ النخيل ولا يُرجِّحُ زورقَ العرس المحلَّى
بعيون آرامٍ ودفْلى
ودرابكَ ارتعدت حناجرُها فأرعدت الهواء .

هرم المغني فاسمعوه ، برغم ذلك ، تسعدوه ،
ولتُوهموه بأنَ من أبَدٍ شبابٌ من لحونْ
وهوى ترقرقُ مقلتاه له وينفح منه فوه .
هو مائتٌ ، أفتبخلونَ
عليه حتى بالحُطام من الأزاهر والغصون ؟
أصغوا إليه لتسمعوه
يرثي الشبابَ ولا كلامَ سوى نشيجٍ : «بالعيون
سلِّمْ عليَ إذا مررتَ .» ،
أتى وسلَّمَ... صَدِّقوه! .
هرم المغنِّي فارحموه .

درم ٥/ /١٩٦٣

غريب على الخليج

الريح تلهث بالهجيرةِ ، كالجثام ، على الأصيلِ
وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل
زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ
من كلّ حافٍ نصف عاري .
وعلى الرمال ، على الخليج
جلس الغريبُ ، يسرِّح البَصَر المحيَّر في الخليج
ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعَّد من نشيجِ
«أعلى من العبَّاب يهدر رغوُهُ ومن الضجيجِ
صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق ،
كالمدِّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع الى العيون
الريح تصرخ بي : عراق ،
والموج يُعولِ بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك يا عراق .
بالأمس حين مررتُ بالمقهى ، سمعتك يا عراقُ...
وكنت دورة أسطوانه
هي دورة الأفلاك من عُمُري ، تكوِّر لي زمانه
في لحظتين من الزمان ، وان تكن فقدت مكانه .
هي وجه أُمي في الظلامِ
وصوتُها ، يتزلَّقان مع الرؤى حتى أنام ؛
وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب
فاكتظَّ بالأشباح تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ
من الدروب ؛
وهي المفلِّية العجوز وما توشوش عن « حزام »[1]
وكيف شقَّ القبر عنه أمام « عفراءَ » الجميله
فاحتازها... إلا جديله .
زهراء ، أنت... أتذكرين
تنَورنا الوهّاج تزحمه أكف المصطلين ؟
وحديثَ عمتيَ الخفيضَ عن الملوك الغابرين ؟
ووراء بابٍ كالقضاء
قد أوصدته على النساء
أيدٍ تُطاع بما تشاء ، لأنها أيدي رجال ـ

(١) هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق عروة بن الحزام عند العامة الذين يروون قصة حبه لعفراء وموته ويرددون معاني قصيدته ، بشعر عامي .

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال .
أفتذكرينَ ؟ أتذكرين ؟
سعداءَ كنا قانعينَ
بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء .
حَشْدٌ من الحيَوات والأزمان ، كنا عُنْفُوانه ،
كنا مَداريْه اللذين بينهما كيانه .
أفليس ذاك سوى هباء ؟
حُلُمٌ ودورة اسطوانه ؟
إن كان هذا كلَّ ما يبقى فأين هو العزاء ؟
أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أنتِ فيه ؛
يا أنتما ، مصباح روحي أنتما ـ وأتى المساء
والليل أطبق ، فلتشعَا في دجاه فلا أتيه .
لو جئتِ في البلد الغريب إليَّ ما كمل اللقاء!
الملتقى بك والعراقُ على يديَّ... هو اللقاء!
شوق يخضُّ دمي إليه ، كأنَّ كلَّ دمي اشتهاء ،
جوع إليه... كجوع كلِّ دم الغريق إلى الهواء .
شوق الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولاده!
إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!
أيخون إنسانٌ بلاده ؟
إن خان معنى أن يكون ، فكيف يمكن أن يكون ؟
الشمس أجمل في بلادي من سواها ، والظلام

ـ حتى الظلام ـ هناك أجملُ ، فهو يحتضن العراق .
واحسرتاه ، متى أنامْ
فأحسّ أن على الوساده
من ليلك الصيفي طلاً فيه عطرُك يا عراق ؟
بين القرى المتهيِّبات خطاي والمدنِ الغريبه
غنَّيْتُ تُربتكَ الحبيبه ،
وحملتُها فأنا المسيحُ يجر في المنفى صليبه ،
فسمعتُ وقع خطى الجياع تسيرُ ، تدمى من عُثار
فتذرُّ في عينيَّ ، منكَ ومن مناسمها ، غُبار .
ما زلتُ أضرب ، مُترِبَ القدمين أشعث ، في الدروب
تحت الشموس الأجنبيَّه ،
متخافقَ الأطمار ، أبسط بالسؤال يداً نديّه
صفراءَ من ذلّ وحُمّى : ذلّ شحّاذٍ غريبِ
بين العيون الأجنبية ،
بين احتقارٍ . وانتهارٍ ، وازورارٍ... أو «خطيّه»[1] ،
والموت أهون من «خطيه» ،
من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيه
فلتنطفي ، يا أنتِ ، يا قطراتُ ، يا دمُ ، يا... نقودُ ،
يا ريح ، يا إبراً تخيط لي الشراعَ ـ متى أعودُ

(١) كلمة اشفاق في اللهجة العراقية (والكويتية) الدارجة .

إلى العراق ؟ متى أعودُ ؟
يا لمعةَ الأمواجِ رنَّحهنَّ مجدافٌ يرودُ
بيَ الخليجَ ، ويا كواكبه الكبيرةَ... يا نقودُ!

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سِفارِ
أو ليت أنَّ الأرضَ كالأفق العريضِ ، بلا بحار!
مازلتُ أحسب يا نقود ، أعدّكنَّ وأستزيد ،
مازلتُ أُنقِصُ ، يا نقود ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي ،
مازلتُ أُوقد بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي
في الضفّة الأخرى هناك فحدثيني يا نقودُ
متى أعود ؟ متى أعودُ
أتُراه يأزف ، قبل موتي ، ذلك اليوم السعيدُ ؟
سأفيقُ في ذاك الصباح ، وفي السماء من السحابِ
كِسَرٌ ، وفي النسمات بَرْدٌ مُشبع بعطور آبِ ؛
وأُزيح بالثُؤَباء بُقيا من نعاسي كالحجابِ
من الحرير ، يشفُّ عما لا يبينُ وما يبينْ :
عما نسيتُ وكدتُ لا أنسى ، وشكٌّ في يقين .
ويضيءُ لي ـ وأنا أمدُّ يدي لألبسَ من ثيابي ـ
ما كنتُ أبحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب
لِمَ يملأ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضباب ؟

اليوم ـ واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأُني ـ أعودُ!

واحسرتاه... فلن أعودَ إلى العراق!

وهل يعودُ

من كان تُعوزُهُ النقود ؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ

وأنت تأكل إذ تجوع ؟ وأنت تُنفقُ ما يجودُ

به الكرام ، على الطعام ؟

لتبكيَنَّ على العراقِ

فما لديك سوى الدموع

وسوى انتظارك ، دون جدوى ، للرياح وللقلوع!

الكويت ١٩٥٣

أغنية في شهر آب

تموز يموت على الأفُقِ
وتغور دماه مع الشفقِ
في الكهف المعتم . والظلماءْ
نقّالة إسعافٍ سوداءْ
وكأن الليل قطيع نساءْ :
كحلٌ وعباءاتٌ سودُ .
الليل خباءْ .
الليل نهار مسدودُ .

نادت مربّية الأطفال الزنجيه :
الليل أتى يا مُرجانه
فأضيئي النور... وماذا ؟ إني جوعانه .

و... نسيت ـ أما من أغنيّه ؟
بمَ يهذر هذا المذياعُ ؟
في لندن ، موسيقى جازٍ ، يا مرجانه .
فإليها... إني فرحانه
والجاز من الدم إيقاعُ .

تموز يموت ومرجانه
كالغابة تربض بردانه...

وتقول ، ويخذلها النَّفَسُ :
«الليل ، الخنزير الشرسُ ،
الليل شقاء!»
مرجانه... هل قرع الجرسُ
فتقول ، ويخذلها النَّفَسُ :
«في الباب نساء» .
وتعد القهوة مرجانه .

وعلي الأكتاف البيض فراء :
الذئب يدثّر إنسانه ،

وعلى الأثداء من النَّمرِ
شرقٌ يتسلّل ، ملء الغاب ، من الشجرِ
والليل يطول مع السمر...
الليل كتنورٍ ـ من أشباح البشرِ
والليل يطول مع السمَر...
الليل كتنورٍ ـ من أشباح البشرِ
خبزٌ يتنشق نيرانه
والضيفة تأكل جوعانه
من هذا الزاد . ومرجانه
كالغابة تربض بردانه .

والضيفة تضحك وهي تقول : «خطيب سعادْ
جافاها ، وانطوتِ الخطبه!
الكلب تنكَّر للكلبه...»
تموز يموت بدون معاد ،
والبرد ينثّ من القمرِ
فتلوذ بمدفأة من أعراض البشر .
والليل يطفّئ شطآنه
والضيفة تقبع بردانه
وفراء الذئب تغطيها...

وتطفات النيران اللاتي كانت بالدم تذكيها .

ليلٌ وجليد
يتساقط عبرهما صوتٌ ، رنَّات حديدْ
وعواء ذئاب يخفيها...
الصوت بعيدْ
والضيفة مثلي بردانه .

فتعال وشاركني بردي
باللّه تعالْ
يا زوجي ، ها إني وحدي
- والضيفة مثلي بردانه -
فتعال تعالْ
فأمامك وحدك أقدر أن أغتاب الناس بلا استثناءْ
باللّه تعالْ
فالناس كثيرٌ... والظلماءْ
نقّالة موتى سائقها أعمى ، وفؤادك جبَّانه .

من رؤيا فوكاي

(فوكاي ، كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيما ، جُن من هول ما شاهده غداة ضربت بالقنبلة الذرية) .

١ . هياي... كونغاي، كونغاي[1]

مازال ناقوس أبيكِ يُقلق المساءْ

بأفجع الرثاء :

« هياي... كونغاي ، كونغايْ » .

فيفزع الصغارُ في الدروبْ

وتخفق القلوب

---

(١) تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوساً ضخماً يصنع من الذهب ، والحديد ، والفضة ، والنحاس . وكلف أحد الحكام بصنعه . ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي ــ وهي ابنة ذلك الحاكم ـ العرافين بالأمر فأنبأوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء... وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن... فكان الناقوس... وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دقِ :

«هياي... كونغاي كونغاي»

وتغلق الدُور ببكِّينَ وشنغهايْ
من رَجع : كونَغاي ، كونَغاي! .
فلتُحرَقي وطفلكِ الوليد ،
ليجمعَ الحديد بالحديد
والفحمَ والنحاسَ بالنُّضار
والعالمَ القديمَ بالجديد
آلهة الحديدِ والنحاس والدّمار ،
أبوك رائدُ المحيطِ ، نامَ في القرار :
من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار[1]...
وحظكِ الدُّموع والمحار
وعاصف عاتٍ من الرصاص والحديد .
وذلك المجلجلُ المرنُّ من بعيد :
لمن ، لمن يدق : «كونَغاي ، كونَغاي» ؟
أهمَّ بالرَّحيلِ في «غرناطة» الغجرْ ؟
فاخضرَّت الرياحُ ، والغديرُ ، والقمر[2] ؟
أم سمَّر المسيحُ بالصليب فانتصرْ
وأنبتتْ دماؤه الورودَ في الصخَرْ ؟

---

(١) شكسبير ـ العاصفة : أغنية «أريل» ـ روح الهواء الذي سخره «بروسبيرو» الساحر ـ لفرديناند : «على عمق أذرعة خمس ينام أبوك في قرارة البحر ، لقد أصبحت عيناه لولؤتين... اسمع ها هو الناقوس ينعاه» . وقد اتخذه ت .س .إليوت في قصيدته الكبرى «الأرض الخراب» رمزاً عن « الحياة من خلال الموت» ولكن لاحظ كيف حولت «يبيعه التجار» المعنى!

(٢) هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الاسباني القتيل لوركا . شاعر الغجر .

أم أنها دماءُ كونَغاي ؟

ورغمَ أن العالمَ استسرَ واندثر[١] ،

مازال طائرُ الحديد يذرعُ السماء ،

وفي قرارة المحيطِ يعقد القرى

أهداب طفلكِ اليتيم ـ حيثُ لا غِناء

إلاَّ صراخَ «البابيون» : «زادُكَ الثرى ،

فازحفْ على الأربع... فالحضيض والعلاء

سيَّان والحياة كالفناء!»

سيَّانِ «جنكيزُ» ، و«كونَغايْ»

هابيلُ قابيلُ ، وبابلٌ كشنغَهاي ،

وليست الفضَّة كالحديد!

هياي... كونغاي ، كونغاي!

نصين حقلُ شايْ ،

وسوقُ شنْغهاي

يعجُّ بالمزارعين قبلَ كلِّ عيد .

هياي... كونغاي . كونغاي!

---

(١) هذا البيت والأبيات الستة التي تليه ـ تكاد تكون حرفية ـ عن الشاعرة الانكليزية ايديث ستويل من قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البابيون ـ القردة ـ في قاع المحيط تهزّ مهد طفل بشري ـ قتل «طائر الحديد» أمه ـ وتغني له مصبحة بهذا ـ وهي القردة ـ أماً للطفل البشري ومعلمة له أيضاً . .

وليلاحظ قراء قصيدتي هذه أن هناك شخوصاً ثلاثة تترابط في ذهني : الصياد الياباني ـ أو الصيني ـ الغريق الذي أخاطب ابنته ، وأبو «فرديناند» ـ الذي زعم أريل انه غرق ـ ، والقردة «البابيون» التي اتخذت مكان أم الطفل في قرارة المحيط ، كما جاء في قصيدة ايديث ستويل .

٢ . تسديد الحساب

تـلـك الـرواسـي كـم انحطَّ الـنـهـار عـلـى
أقـصـى ذُراهـا ، وكـم مرَّت بـهـا الـظـلَـمُ
فـمـا فـرحـنَ بـآلافِ الـشـمـوسِ ، ولا
مـن ألـفِ نـجـمٍ تـردى مـسَّـهـا ألـم
صمَّاءُ ، بكماء ، لم تأخذ ، ولا وهبتْ
ولا تـرصَّـدهـا مـوت ولا هـرم
لـو أودع الـلّـه إيـاهـا أمـانـتـه
لـنـالـهـنَّ عـلـى إسـتـيـداعـهـا نـدمُ
ولاقـتـسـمـنَ مـع الأحـيـاء مـا دفـعـت
مـن جزيـةٍ لا تُـوفَّـى حـيـن تُـقـتـسـم :
عـن كـلِّ قـهـقـهـةٍ مـن صـرخـةٍ ثـمـنٌ
ومـا اسـتـجـدَّ دمٌ إلا وضـاع دم
ومـا تـحـمَّـل آلام الـمـخـاض ولـم
يـقـرب مـن الـنـور إلاَّ الـفـكـرُ والـرحـمُ
وإن يـكـن أسـعـدَ الأحـيـاء أكـمـلـهـا
فـإنـمـا هـو أشـقـاهـنَّ لا جَـرَمُ ؟

«قابيلُ» باقٍ وان صارت حجارته
سَيفاً ، وإن عادَ ناراً سيفُه الخذم
وردَّ «هابيلُ» ما قضاه بارئه
عن خَلقهِ ، ثمَّ ردَّت باسمه الأمَمُ
واليومَ ، في حين وفَى الدَّينَ غارمه
إلا بقايا وكادت تخلص الذِّمم
وكاد يُرجع للدنيا بشاشتها
ما قرَّبته الضحايا وهي تبتسمُ
مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه
من وحشها في المخاض الأولِ الضرمُ
خَلقٌ تراءى لـ «يحيى»[1] ساعة افترست
عينيه رؤيا لها مِن هؤلاء فمُ
لو يُقبض النورُ بالأيدي لسوَّره
دونَ الورى... ولتعمَّ العالم الظّلم
ريَّانُ عطشانُ لا يروى ، بلا فرحٍ
جذلانُ ، بادٍ عليه الجوع والبشَمُ
كأنه ـ وهو ماض في غوايته ـ
من نفسه اقتصَّ ، فهو الماءُ والحممُ

(١) القديس يوحنا ـ كما يسميه المسيحيون .

تـفـجـر الـضَّـحِـكُ الـمـسـلـوبُ مـن رئـةٍ
مـنـخـوبـةٍ بـعـد أخـرى هـدهـا الـسـقـم
عـن ضـحـكـة أطـلـقـوهـا فـهـي صـاعـقـةٌ
أصـابـهـم والـورى مـن رجـعـهـا صـمـم
واسـتـنـزفـوا مـتـعـةَ الأحـيـاء : مـا دفـعـوا
عـنـهـا ، ولا غـارمـاً مـا اسـتـنـزفـوا رحـمـوا
ثـم اسـتـزادوا... فـإن لـم يـذهـبـوا ديـةً
أو يـقـصـروا عـن طـمـاحٍ يـرجـحِ الـعـدمُ!

٣ . حقائق كالخيال[1]

مـاذا تـريـد الـعـيـون الـسـود مـن رجـلٍ
قـد حـاش زهـر الـخـطـايـا حـيـن لاقـاهـا
زهـراً عـلـى جـسـمـي الـمـحـمـومِ أقـطـفـه
فـي بـاقـةٍ مـن جـراحٍ بـثَّ أصـلاهـا :
هـذا الـربـيـع الـذي تـهـدي شـقـائـقـه
ريـحَ الـمـنـايـا إلـى قـلـبـي بـريَّـاهـا .

---

(١) المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما ، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل أشياء لا وجود لها ، ولكنه ـ خلال أوهامه ودون وعي منه ـ يصور جانباً مما حدث في هيروشيما حين القيت عليها القنبلة .

أزهارُ تموز[1] ما أرعى : أسلِّمه

في عتمةِ العالم السُّفليِّ إياها ؟

أم صِلَ حواء بالتفاح كافأني

وهو الذي أمسِ بالتفاح أغواها ؟

ماذا تريد العيون السود ؟ إن لها

ما لستُ أنساه منها حين أنساها

ما بالهن استقضنَ البوم أوعيةً

عن أوجه الغيد... حتى ضاع معناها

أين المناقير من لعس مراشفها

ربِّي ؟ وأين ابتسام كان يغشاها

من هذه الخربةِ الظلماء محدقة

بي أعين البومِ من أجداثِ موتاها ؟

قفراءُ من غيرِ ثكلى شفَّ منزرها

عن وهج فانوسها الكابي وأخفاها

تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعته[2]

طفلٌ ، وطارت وقد ألوى جناحاها

محنيَّة تتقرَّى كل شاهدة

من كل قبرٍ ، كما لو كان طفلاها

---

(١) تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء ، وحبيب عشتروت ـ أو فينوس ـ إلهة احب . وهو يقضي نصفاً من السنة ـ الشتاء ـ في العالم السفلي مع برسفون ، والنصف الآخر ـ الصيف أو الربيع ـ على الأرض مع فينوس .

(٢) اليراعة : ذبابة مضينة ، حباحب .

فـي كـلّ قـبـرٍ يـذوقـان الـردى ؛ ديـةً
عـمَّـن يـؤاوي وعـن أحـيـاء دنـيـاهـا
نـادتـهـمـا فـانـبرى يـزقـو لـصيـحـتـهـا
ـ من حيث ردَّ الصدى ـ بُومٌ وناداها :
«أُمَّـاه إنـا هـنـا . ريـحٌ بـنـا عـصـفـت
لـم نـدر أيـن انـتـهـينـا بـعـد لـقـيـاهـا»
وانـشـقَّ مـن خـلـفـهـا قـبـرٌ لـيـبـلـعـهـا
واحـتـازهـا واشـرأبَّـت مـنـه كـفّـاهـا
يـخـتـضّ فـانـوسـهـا الـثّـمـتامُ بـيـنـهـمـا
والـريـحُ خـرسـاء تـعـبـى...
غـيـرَ «هـا . هـا ... هـا ...»

ويُـلـمّ سـازاك[1] كـيـف انـدك حـائـطـه
حتى تـعـرى لـيَ الـسـهـلُ الـذي حـجـبـا ؟
سـهـلٌ يـكـنّ الـصـلال الـرّقّـط ، أجـهـضـه
عـادٍ من الـمـحـل حـتـى يـفـزع الـعـطـبـا
وانـبـحّـت الـتـربـةُ الـعجِفاء ـ من عطش ـ
عـن أشـدُقٍ فـاغـراتٍ تـنـبـح الـسـحـبـا

---

(١) الدكتور سازاكي كان طبيباً في مستشفى الصليب الأحمر في مدينة هيروشيما .

والشمس كالأطلس[1] المسعور تنهشه

والريحُ تصليه من تنورها لهبا

الريح ؟ لا ليست الريح التي ركضت

بيضاء سوداء رقطاء القفا عجبا

عنقاء[2] في مِسعر الجوزاء أعينُها

والصخر يرفضَ من أظلافها شهبا

تلك الزرافات[3] في السهل العقيم لها

مرعى روًى من سرابٍ ، ينبت السَغبا

ما روّعتها سوى ضوضاء خشخشة

في كفٍّ أبرص يعدو خلفها خببا

تخفيه عنها ضماداتٌ ، ويظهره

ما نزَّ من قيحه الدامي وما شخَبا

نادى ، وكفّاه تختضّانِ ، «واحربَا»

فاستعبر العاصف المصدور «واحربا» .

«ماء اسْقِ يا ماء...» تلهاثُ مقاطعه

منزوعة من لسان يشبه الخشَبا

حتى استجاب السحاب الجونُ فانعقدت

في الجوّ حبّاته الغبراء فاحتجبا

---

(١) الأطلس : الذئب .

(٢) عنقاء طويلة العنق .

(٣) الزرافات جمع زرافة ، الحيوان المعروف .

وانــهـلَّ : لا عــن نـدىً صـافٍ ولا مـطـر
بـل عـن دم ، مـن ثُـديّ مـزّقـت حُـلـبـا
أو عـن مـشـاش مـن الأحـداق فـقـأهـا
سِيخٌ لـجـنـكـيـز(١) دامٍ يـنـفـث الـلـهـبـا
«ماء ، اسق يا ماء...» والغيث الرهيب كلىً
مَـفـريـة سـحَّـت الآجـال والـكـربَـا
لـم يـبـقَ مـن مـرتـوٍ أو ظـامـىء ، بـفـمٍ
أو دونَ... ، إلا ومـن مـاء الـردى شـربـا

ويـلٌ لـسـازاك! مـاذا يـنـتـوي بـدمـي
مـن نـيّـة... فـهـو يـسـتـصـفـي ويـمـتـار ؟
تـلـك الـزجـاجـات أشـلاء مـجـزأة
مـنـي ، دمـي مـخـتـزٍ فـيـهـنَ مـوّارا!
لـم تـثـن سـازاك عـن شـحـذٍ لـمـديـتـه
آهـات مِـرضـى ، ولا ألـهـاه زوار
إنـي لـدارٍ بـأنـي حـيـن يـشـرعـهـا
رانٍ إلـيـهـا ، فـمـلـدوغٌ ، فـمُـنـهـار

(١) جنكيز خانٌ السفاح المشهور .

هل تبتغي شفرتاها غير آنيةٍ
فيها دمي راجفٌ ، والداء والعار ؟
ما كنت يوماً ولا المرضى سوى عَرضٍ
ـ في عين سازاك ـ يُجبى منه إيجار
ست وعشرون : أعدادٌ على سررٍ
أما الأصحاء والمرضى فأصفار!
فالرقم «عشرونَ» لا يسقى سوى لبنٍ
والرقم «عشرٌ» نعاه اليومَ محرارُ
واليوم لم يبقَ ما اعطيه عن مرضٍ
إلا دعائي وقولي «نِعمتِ الدارُ»!
فليلْقَ سازاكُ مَن يسمى «ثمانية»
غيري ، ويستوفِ أجرَ القبر حفارُ!

رسالة من مقبرة

« إلى المجاهدين الجزائريين »

من قاع قبري أصيحْ
حتى تئنَّ القبورْ
من رَجع صوتي ، وهو رملٌ وريح :
من عالمٍ في حفرتي يستريح ،
مركومةً في جانبيه القصورْ ،
وفيه ما في سواه
إلاّ دبيبَ الحياه ،
حتى الأغاني فيه ، حتى الزُّهور
والشمسُ ، إلاّ أنها لا تدور
والدُّود نخَّارٌ بها في ضريح .
من عالمٍ في قاع قبري أصيح :
« لا تيأسوا من مولدٍ أو نشور! »

النور من طينٍ هنا أو زجاجْ ،
قُفلٌ على باب سورْ .
النور في قبري دجىً دون نور .
النور في شُبّاك داري زجاج ،
كم حدّقتْ بيَ خلفه من عيونْ
سوداءَ كالعارِ
يجرحن بالأهداب أسراري
فاليوم داري لم تعدْ داري
والنور في شبّاك داري ظنونْ
تمتصُّ أغواري .
وعند بابي يصرخ الجائعونِ :
«في خُبزِكَ اليوميِّ دفءُ الدّماء
فاملأ لنا ، في كل يومٍ ، وعاء
من لحمك الحيِّ الذي نشتهيه ،
فنكهةُ الشمس فيه
وفيه طعم الهواء!»
وعند بابي يصرخ الأشقياءْ :
«أُعصرْ لنا من مقلتيكَ الضياء
فأننا مُظلمون!»
وعند بابي يصرخ المخبرون :

«وَعرٌ هو المرقى إلى الجلجلة[1] ،
والصَّخرُ ، يا سيزيفُ ، ما أثقله .
سيزيف... إنّ الصخرةَ الآخرون!»

لكنَّ أصواتاً كقرع الطبولْ
تنهلُّ في رمسي
من عالم الشمسِ
هذي خُطى الأحياء بين الحقول
في جانب القبر الذي نحن فيه .
أصداؤها الخضراء
تنهلُّ في داري
أوراقَ أزهارِ
من عالم الشمس الذي نشتهيه .
أصداؤها البيضاء
يَصدعنَ من حولي جليدَ الهواء
أصداؤها الحمراء
تنهلُّ في داري
شلالَ أنوارِ ،
فالنور في شبَّاك داري دماء

(١) الجلجلة . الجبل الذي حمل المسيح صليبه الى قمته .

ينضَحنَ من حيث التقى ، بالصخورْ
في فُوهةِ القَبر المغطَّاةِ ، سور .
هذا مخاضُ الأرض لا تيأسي ؛
بُشراكِ يا أجداث ، حانَ النشورْ!
بشراكِ... في «وهران» أصداءُ صورْ .
سيزيفُ ألقى عنه عبء الدُّهور
واستقبلَ الشمسَ على «الأطلسِ»!

آهِ لوهرانَ التي لا تثور!

في المغرب العربي

قرأتُ اسمي على صخره
هنا ، في وحشة الصحراءْ ،
على آجرةٍ حمراء ،
على قبرٍ . فكيف يحسُّ إنسانٌ يرى قبره ؟
يراه وإنه ليحارُ فيه :
أحيّ هو أم ميتٌ ؟ فما يكفيه
أن يرى ظلاً له على الرمالْ ،
كمئذنةٍ مُعفَرةٍ
كمقبرةٍ
كمجدٍ زالْ
كمئذنةٍ تردَّد فوقها اسمُ اللّه
وخُطَّ اسمٌ له فيها ،
وكان محمدٌ نقشاً على آجُرَّةٍ خضراءْ

يزهو في أعاليها...
فأمسى تأكل الغبراء
والنيرانُ ، من معناه ،
ويركله الغزاة بلا حذاء
بلا قدمٍ
وتنزف منه ، دونَ دمٍ ،
جراحٌ دونما ألم ـ
فقد ماتْ...
ومتنا فيه ، من موتى ومن أحياء .
فنحن جميعنا أموات
أنا ومحمد والله .
وهذا قبرنا : أنقاض مئذنة معفّرةٍ
عليها يُكتبُ اسم محمدٍ والله ،
على كِسرٍ مبعثرةٍ
من الآجرّ والفخّارْ .
فيا قبر الإله ، على النهار
ظلٌّ لألف حربةٍ وفيلْ
ولونُ أبرهَه
وما عكسته منه يدُ الدليل ،
والكعبة المحزونة المشوَّهه .
قرأتُ اسمي على صخره ،

على قبرين بينهما مدى أجيالْ
يجعل هذه الحفره
تضمّ اثنين : جد أبي - ومحضُ رمالْ
ومحضُ نثارة سوداء منه ، استنزلا قبره -
وإياي ، ابنَه في موته والمضغةِ الصلصال .

وكان يطوف من جدّي
مع المدِّ
هتافٌ يملأ الشطآنَ : «يا ودياننا ثوري!
ويا هذا الدمُ الباقي على الأجيالْ
يا إرثَ الجماهيرِ ،
تشظَّ الآن واسحقْ هذه الأغلالْ
وكالزلزال
هُزَّ النيرَ ، أو فاسحقه واسحقنا مع النيرِ» .
وكان إلهنا يختالْ
بين عصائب الأبطال ،
من زندٍ إلى زندِ
ومن بنْدٍ إلى بندِ

إلهُ الكعبة الجبّارْ ،
تدرَّعَ أمسِ في ذي قار

بدرعٍ من دم النعمان في حافاتها آثارْ .
إله محمد وإله آبائي من العربِ ،
تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار ،
وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار .
وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحبِ :
جريحاً كان في احيائنا يمشي ويستجدي ،
فلم نضمدْ له جرحاً
ولا ضحًى
له منا بغير الخبز والانعام من عبْدِ!

وأصوات المصلين ارتعاشٌ من مراثيهِ
إذا سجدوا ينزُّ دمُ
فيسرع بالضماد فمُ :
بآياتٍ يغضَ الجرح منها خير ما فيهِ ،
تداوي خوفنا من علمنا أنا سنحييه
إذا ما هلل الثوار منا : «نحن نفديه!»

أغار ، من الظلام على قرانا
فأحرقهنَّ ، سربٌ من جرادِ
كأن مياه دَجلة ، حيث ولًى ،
تنمّ عليه بالدم والمدادِ .

أليس هو الذي فجأ الحُبالى
قضاه ، فما ولدْنَ سوى رمادِ ؟
وأنعل ، بالأهلة في بقايا
مآذنها ، سنابك من جوادِ ؟
وجاء الشام يسحب في ثراها
خُطى أسدين جاعا في الفؤادِ ؟
فأطعم أجوع الأسدين عيسى
وبلّ صداه من ماء العمادِ
وعضّ نبيّ مكة... فالصحارى
كل الشرق ينفرُ للجهادِ ؟

أعاد اليوم ، كي يقتصّ من أنّا دحرناهُ ؟
وإن اللّه باقٍ في قرانا ، ما قتلناه ؟
ولا من جوعنا يوماً أكلناه ؟
ولا بالمال بعناهُ ـ
كما باعوا
إلههمُ الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه ؟
كما أكلوه إذ جاعوا ـ
إلهمُ الذي من خبزنا الدامي جبلناهُ ؟
وفي باريس تتخذ البغايا
وسائدهنّ من ألم المسيحِ

وبات العقمُ يزرع في حشاها
فم التنِّين : يشهق يالفحيحِ
ويقذف من حديدٍ في حمانا
جحافل كالفوارس ، دون روحِ
تجدّ وراء مكة في الصياصي
أقمناها ، ويثرب في السفوحِ

قرأت اسمي على صخره...
وبين اسمين في الصحراءْ
تنفس عالمُ الأحياء
كما يجري دمُ الأعراق بين النبض والنبض
ومن آجرّةٍ حمراء ماثلة على حُفره
أضاء ملامح الأرضِ
بلا ومض
دمٌ فيها ، فسمَّاها
لتأخذ منه معناها
لأعرف أنها أرضي
لأعرف أنها بعضي
لأعرف انها ماضيَّ ، لا أحياه لولاها
وأني ميِّت لولاه ، أمشي بين موتاها .
أذاك الصاخب المكتظّ بالرايات وادينا ؟

أهذا لوْن ماضينا
تضوّأ من كوى «الحمراءْ»
ومن آجرّةٍ خضراء
عليها تكتب اسمَ اللّه بقيا من دمٍ فينا ؟
أنبرٌ من أذان الفجر ؟ أم تكبيرة الثوارْ .
تعلو من صياصينا... ؟
تمخّضت القبور لتنشرَ الموتى ملايينا
وهبَ محمدُ وإلهه العربيَ والأنصارْ :
إن إلهنا فينا

العودة لجيكور

على جواد الحُلم الأشهبِ
أسريت عَبرَ التلالْ
أهرب منها ، من ذُراها الطوال ،
من سوقها المكتظِّ بالبائعين ،
من صبحها المتعَبِ
من ليلها النَابح والعابرين ،
من نورها الغَيهب ،
من ربها المغسول بالخمر ،
من عارها المخبوء بالزهر ،
من موتها الساري على النهر[1]
يمشي على أمواجه الغافيه .

(١) كان المسيح ، في عهده ، هو الذي مشى على الماء .

أواه لو يستيقظ الماء فيهْ ،
لو كانت العذراء من وارديه ،
لو أن شمس المغرب الداميه
تبتلُّ في شطيَّه أو تُشرقُ ،
لو أن أغصان الدُّجى تورقُ
أو يُوصَدُ الماخور عن داخليه .

٢

على جواد الحُلَم الأشهبِ
وتحت شمس المشرق الأخضر
في صيف جيكور السخيِّ الثري
أسريتُ أطوي دربيَ النائي
بين الندى والزهر والماءِ
أبحث في الآفاق عن كوكب[١]
عن مولد للروح تحت السماء
عن منبع يُروي لهيب الظماء
عن منزلٍ للسائح المتْعبِ .

---

(١) ــ وبزغ كوكب عرف منه المجوس ان المخلص قد ولد .

٣

جيكور ، جيكور : أين الخبزُ والماءُ ؟
الليل وافى وقد نام الادلأَّءُ ؟
والركبُ سهرانُ من جوعٍ ومن عطشٍ
والريح صَرٌّ ، وكل الأفق أصداءُ .
بيداءُ ما في مداها ما يبين به
دربٌ لنا وسماء الليل عمياءُ
جيكور مدّي لنا باباً فندخلَه
أو سامرينا بنجم فيه أضواء!

٤

من الذي يسمع أشعاري ؟
فان صمت الموت في داري
والليلَ في ناري .
من الذي يحمل عِبْء الصليبْ
في ذلك الليل الطويل الرهيب ؟
من الذي يبكي ومن يستجيب

للجائع العاري ؟
من يُنزل المصلوبَ عن لَوحِهِ ؟
من يطرد العقبان عن جرحه ؟
من يرفع الظلماء عن صبحه ؟
ويُبدل الأشواكَ بالغارِ[1] ؟
أواه يا جيكور لو تسمعين!
أواه يا جيكور... لو توجَدين!
لو تنجبين الروح ، لو تُجهضين
كي يُبصر الساري
نجماً يُضيء الليلَ للتائهين .

٥

نَزْعٌ ولا مَوْتُ ،
نُطْقٌ ولا صوتُ ،
طَلْقٌ ولا ميلاد .
من يصلب الشاعرَ في بغداد ؟
من يشتري كفَّيه أو مُقْلتيه ؟

---

(١) وألبسوا المسيح تاجاً من الشوك... سخريةً به .

من يجعل الاكليلَ شَوْكاً عليه ؟
جيكور يا جيكورْ
شدَّت خيوطُ النور
أرجوحةَ الصُّبْحِ .
فأولمي للطيور
والنملِ من جُرْحي .

هذا طعامي أيَّها الجائعون
هذي دموعي أيها البائسون
هذا دعائي أيها العابدون :
أن يقذف البركانُ نيرانَهُ ،
أن يُرسل الفراتُ طوفانَهُ ،
كي نُشرق الظُلْمَه ،
كي نعرف الرحمه ؛
جيكور يا جيكور
شدّت خيوط النور
أُرجوحة الصبحِ
فأولمي للطيور
والنملِ من جُرْحي!

٦

هذا حراني[١] حاكت العنكبوتْ
خيطاً إلى بابه
يهدي إليَّ الناس إني أموت
والنور في غابه
يُلقي دنانير الزمان البخيلْ
من شرفةٍ في سعفات النخيل .
جيكور ، يا جيكور : خلٌّ وماءْ
ينساب من قلبي ،
من جُرحيَ الواري ،
من كل أغواري .
أواه يا شعبي...
جيكور ، يا جيكور هل تسمعينْ ؟
فلْتفتح الأبواب للفاتحين
ولتجمعي أطفالك اللاعبين
في ساحة القرية . هذا العشاءْ .

---

(١) حراء ، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد . حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ ـ والمشركون جادون في أثره ـ في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتد المشركون إلى مخبأ محمد .

هذا حصاد السنين :
الماء خمرٌ ، والخوابي غذاء[1]
هذا ربيع الوباء .

٧

أقوى من الأسوار هذا الجوادْ
« أقوى جوادُ الحُلُمِ الأشهبُ »
لانَ الحديدُ المغتذي بالحداد
وانخذل الموكبُ .
جيكور ، ماضيكِ عاد .
... ...
هذا صياحُ الديك : ذاب الرقاد
وعدتُ من معراجيَ الأكبر :
الشمس أمُّ السنبل الأخضرِ
خلف المباني ، رغيفْ .
لكنها في الرصيف
أغلى من الجوهر .

---

(١) ـ وأحال المسيح الماء الى خمر فشرب الحاضرون .

والحُبُ : «هل تسمعين
هذا الهتافَ العنيف ؟
ماذا علينا ؟ إن عبد اللطيف[1]
يدري بأنّا ... ما الذي تحذرين ؟
وانخطفت روحي ، وصاح القطارْ
ورقرقت في مقلتيَّ الدموعْ
سحابةً تحملني ، ثم سار .
يا شمس أيامي ، أما من رجوع ؟
... ...
جيكور ، نامي في ظلام السنين .

(١) اقرأ مذكراتي «كنت شيوعياً» المنشورة في جريدة الحرية العراقية .

النهر والموت

بُوَيْبُ...

بُوَيْبُ...

أجراسُ بُرجٍ ضاع في قرارة البَحَرْ .

الماء في الجرار ، والغروب في الشَّجَر

وتنضحُ الجرارُ أجراساً من المطرْ

بلُّورُها يذوب في أنينْ

«بُوَيْبُ... يا بُوَيبُ!» ،

فيَدْلَهِمُّ في دمي حنينْ

إليْكَ يا بُوَيْب ،

يا نهريَ الحزينَ كالمطرْ .

أودُّ لو عدوْتُ في الظلامْ

أشدُّ قبْضتيَّ تحملان شوْقَ عام

في كلِّ إصبَعٍ ، كأني أحملُ النّذورْ

إليكَ ، من قمحٍ ومن زهور .
أودُّ لو أُطلُّ من أسرةِ التلال
لألمحَ القَمَرْ
يخوض بينَ ضفتيكَ ، يزرع الظلالْ
ويملأ السِّلال
بالماء والأسماكِ والزَّهَرْ .
أودُّ لو أخوض فيكَ ، أتبعُ القمرْ
وأسمعُ الحصى يصلُّ منك في القرار
صليلَ آلافِ العصافير على الشجر .
أغابةٌ من الدموعِ أنت أم نهرْ ؟
والسَّمكُ الساهرُ ، هل ينام في السَّحَرْ ؟
وهذه النجومُ ، هل تظلُّ في انتظارْ .
تُطْعِمُ بالحرير آلافاً من الإبَرْ ؟
وأنتَ يا بُويْب...
أودُّ لو غرقتُ فيك ، ألقِطُ المحارْ
أشيدُ منه دارْ
يُضيءُ فيها خُضْرَةَ المياهِ والشَّجرْ
ما تنضحُ النجومُ والقمر ،
وأغتدي فيكَ مع الجَزْرِ إلى البَحرْ!
فالموت عالمٌ غريبٌ يفتنُ الصِّغار ،
وبابُه الخفي كان فيكَ ، يا بُوَيبْ...

- ٢ -

بوَيبُ... يا بُويبْ ،

عشرون قد مضيْن ، كالدُّهور كلُّ عام .

واليوم ، حين يُطبقُ الظلامْ

وأستقِرُّ في السرير دون أن أنام

وأُرهفُ الضميرَ : دوحةً إلى السَّحَرْ

مرهفة الغصونِ والطيور والثمرْ -

أُحسُّ بالدِّماء والدموع ، كالمطرْ

ينضَحُهُنَّ العالمُ الحزينْ :

أجراس موتى في عروقي تُرعشُ الرنينْ ،

فيدلهمُّ في دمي حنين

إلى رصاصةٍ يشق ثلجُها الزُّؤامْ

أعماقَ صدري ، كالجحيم يُشعل العظام .

أودُّ لو عدوتُ أعضد المكافحينْ

أشدَّ قبضتيَّ ثم اصفعُ القدَرْ .

أودُّ لو غرقتُ في دمي إلى القرار ،

لأحملَ العبْءَ مع البشرْ

وأبعثَ الحياة . إنَّ موتيَ انتصار!

المسيح بعد الصلب

بعدما أنزلوني ، سمعتُ الرياحْ
في نواحٍ طويلٍ تسفُّ النخيلْ ،
والخطى وهي تنأى . إذن فالجراحْ
والصليبُ الذي سمَّروني عليه طوال الأصيلْ
لم تُمِتْني . وأنصَتُّ : كان العويلْ
يعبر السهلَ بيني وبين المدينه
مثل حبل يشدّ السفينه
وهي تهوي إلى القاع . كان النواح
مثل خيط من النور بين الصباح
والدجى ، في سماء الشتاء الحزينه .
ثم تغفو ، على ما تُحسُّ ، المدينه .

حينما يُزهر التوتُ والبرتقالْ ،
حين تمتدُّ «جَيْكورُ» حتى حدودِ الخيال ،
حين تخضرُّ عُشباً يغنّي شذاها
والشموسَ التي ارضعتها سناها ،
حين يخضرُّ حتى دجاها ،
يلمس الدفءُ قلبي ، فيجري دمي في ثراها .
قلبيَ الشمسُ إذْ تنبضُ الشمس نورا ،
قلبيَ الأرض ، تنبض قمحاً ، وزهراً ، وماءً نميرا ،
قلبيَ الماءُ ، قلبي هو السنبلُ
مَوته البعثُ : يحيا بمن يأكلُ .
في العجين الذي يستدير
ويُدحى كنهدٍ صغير ، كثَدي الحياه ،
متُّ بالنار : أحرقت ظلماء طيني ، فظلَّ الإله .
كنتُ بدءاً وفي البدء كان الفقيرْ .
متُّ ، كي يؤكل الخبز باسمي ، لكي يزرعوني مع الموسمِ ،
كم حياةٍ سأحيا : ففي كل حفره
صرتُ مستقبلاً ، صرت بذره ،
صرتُ جيلاً من الناس : في كل قلبٍ دمي
قطرةٌ منه أو بعض قطره .

هكذا عدتُ ، فاصفرَّ لما رآني يهوذا...
فقد كنت سِرَّه .
كأن ظلاً ، قد اسودَّ ، منّي ، وتمثال فكره
جُمِّدتْ فيه واستُلّتِ الروحُ منها ،
خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه...
(عيناه صخره
راح فيها يُواري عن الناس قَبرَه)
خاف من دفئها ، من محالٍ عليه ، فخبَّر عنها .
ـ «أنتَ! أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفضَّ نورا ؟
أنت من عالم الموت تسعى! هو الموتُ مرَّه .
هكذا قال آباؤنا ، هكذا علمونا فهل كان زورا ؟ »
ذاك ما ظنَّ لما رآني ، وقالته نظره .

قدمٌ تعدو ، قدمٌ ، قدمُ
القبر يكاد بوقْع خطاها ينهدمُ .
أترى جاءوا ؟ من غيرهمُ ؟
قدمٌ... قدمٌ . قدمُ
القيتُ الصخر على صدري ،
أوَ ما صلبوني أمسِ ؟... فها أنا في قبري .
فليأتوا ـ إني في قبري .
من يدري أني... ؟ مَن يدري ؟ ؟

ورفاق يهوذا ؟! من سيصدِّق ما زعموا ؟
قدَمٌ... قدمُ .
ها أنا الآن عريانُ في قبريَ المظلم :
كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنِّ ، كالبرْعم ،
تحت أكفانيَ الثلجِ ، يخضلُّ زهرُ الدمِ ،
كنتُ كالظلِّ بين الدجى والنهارْ -
ثم فجَّرتُ نفسي كنوزاً فعرَّيتها كالثمار .
حين فصَّلْتُ جيبي قماطاً وكمّي دثار ،
حين دفَأْتُ يوماً بلحمي عظامَ الصغار ،
حين عرَّيْتُ جرحي ، وضمّدتُ جرحاً سواه ،
حُطِّمَ السورُ بيني وبين الإلهْ .

فاجأ الجندُ حتى جراحي ودقات قلبي
فاجأوا كلَّ ما ليس موتاً وإن كان في مقبره
فاجأوني كما فاجأ النخلةَ المثمره
سربُ جَوْعى من الطير في قريةٍ مقفره .

أعينُ البندقيات يأكلْنَ دربي ،
شُرَّعٌ تحلم النارُ فيها بصلبي ،
إن تكن من حديدٍ ونارٍ ، فأحداقُ شعبي
من ضياء السماوات ، من ذكرياتٍ وحُبِّ

تحمل العبءَ عني فيندى صليبي ، فما أصغره
ذلك الموتُ ، موتي ، وما أكبره!

بعد أن سمَّروني وألقيتُ عينيَّ نحو المدينه
كدتُ لا أعرف السهلَ والسور والمقبره :
كان شيءٌ ، مدى ما ترى العينُ ،
كالغابة المزْهره ،
كان ، في كلِّ مرمى ، صليبٌ وأمٌّ حزينه .
قُدِّس الربُّ!
هذا مخاضُ المدينه .

أنشودة المطر

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ ،
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر .
عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ
وترقص الأضواء... كالأقمار في نَهرْ
يرجّه المجذاف وهْناً ساعة السَّحَر
كأنما تنبض في غوريهما ، النُّجومْ...

وتغرقان في ضبابٍ من أسىً شفيفْ
كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء ،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف ،
والموت ، والميلاد ، والظلام ، والضياء ؛
فتستفيق ملء روحي ، رعشة البكاء

ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف منَ القمر!
كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ
وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر...
وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم ،
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودةُ المطر...
مطر...
مطر...
مطر...
تثاءب المساء ، والغيومُ ما تزالْ
تسحُّ ما تسحَ من دموعها الثقالْ .
كأنَّ طفلاً باتِ يهذي قبل أن ينام :
بأنَّ أمّه ـ التي أفاق منذ عامْ
فلم يجدها ، ثمَّ حين لجّ في السؤال
قالوا له : «بعد غدٍ تعودْ...» ـ
لا بدَّ أن تعودْ
وإن تهامس الرفاق أنَّها هناكْ
في جانب التلّ تنام نومة اللّحودْ
تسفّ من ترابها وتشرب المطر ؛
كأن صياداً حزيناً يجمع الشِّباك

ويلعن المياه والقَدَر
وينثر الغناء حيث يأفل القمرْ .
مطر...
مطر...
أتعلمين أيَّ حُزْنٍ يبعث المطر ؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر ؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع ؟
بلا انتهاء ـ كالدَّم المراق ، كالجياع ،
كالحبّ ، كالأطفال ، كالموتى ـ هو المطر!
ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ
سواحلَ العراق بالنجوم والمحار ،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ .
أصيح بالخليج : «يا خليجْ
يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والرّدى!»
فيرجعُ الصّدى
كأنّه النشيجْ :
«يا خليج
يا واهب المحار والردى...»

أكاد أسمع العراق يذْخرُ الرعودْ
ويخزن البروق في السَهول والجبالْ ،
حتى إذا ما فضَ عنها ختمها الرّجالْ
لم تترك الرياح من ثمودْ
في الوادِ من أثرْ .
أكاد أسمع النخيل يشربُ المطر
وأسمع القرى تئنَ ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع ،
عواصف الخليج ، والرعود ، منشدين :
« مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوعْ
وينثر الغلالَ فيه موسم الحصادْ
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشّوان والحجر
رحىً تدور في الحقول... حولها بشرْ
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل ، من دموعْ

ثمَّ اعتللنا ـ خوف أن نلامَ ـ بالمطر...

مطر...

مطر...

ومنذ أنْ كنَّا صغاراً ، كانت السماء

تغيمُ في الشتاء

ويهطل المطر ،

وكلَّ عام ـ حين يعشب الثرى ـ نجوعْ

ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوعْ .

مطر...

مطر...

مطر...

في كل قطرة من المطر

حمراءُ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ .

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حُلمةٌ تورَّدتْ على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ ، واهب الحياة!

مطر...

مطر...

مطر...

سيُعشبُ العراق بالمطر... »

أصيح بالخليج : « يا خليج...
يا واهب اللؤلؤ ، والمحارِ ، والردى! »
فيرجع الصدى
كأنَّه النشيج :
« يا خليج
يا واهب المحار والردى » .
وينثر الخليج من هِباته الكثارْ ،
على الرمال ، : رغوه الأُجاجَ ، والمحار
وما تبقّى من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظلّ يشرب الردى
من لجَّة الخليج والقرار ،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرَّحيقْ
من زهرة يربُّها الفرات بالنَّدى .
وأسمع الصدى
يرنّ في الخليج
« مطر...
مطر...
مطر...
في كل قطرة من المطر

حمراءُ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ .
وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة
وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد
أو حُلمةٌ تورَّدتْ على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتيّ ، واهب الحياة» .

ويهطل المطرْ...

بور سعيد

يـا حـاصـدَ الـنـار مـن أشـلاء قـتـلانـا
منـكَ الضـحـايـا ، وإن كـانـوا ضـحـايـانـا
كـم مـن ردىً فـي حـيـاةٍ ، وانـخـذالِ ردىً
فـي مـيـتـةٍ ، وانـتـصـارٍ جـاء خُـذْلانـا!
إنّ الـعـيـون الـتـي طـفّـأتَ أنـجُـمَـهـا
عجّلْـن بـالـشـمـس أن تـخـتـار دنـيـانـا
وامـتـدّ ، كـالـنـور ، فـي أعـمـاق تُـربـتـنـا ،
غـرْسٌ لـنـا مـن دمٍ ، واخـضـلَّ مـوتـانـا
فـازَّلْـزَلـي يـا بـقـايـا كـاد أوّلُـنـا
يُـبـقـي عـلـيـهـا ، مـن الأصـنـام ، لـولانـا
نـحـن الـذيـن اقـتـلـعـنـا مـن أسـافِـلِـهـا
لاةٍ وعُـزّى ، وأعـلـيْـنـاهُ إنـسـانـا

حُيِّيتِ بورتَ سعيدٍ ، من مسيلِ دمٍ
لولا افتداءُ لما يُغليه ، ماهانا
حُيِّيتِ من قلعةٍ صمّاءَ ناطَحَها
عادٍ من الوحش يُزجيهنَّ قُطعانا
عاناكِ في الليّل داجٍ من جحافِلِها :
نوراً من اللّهِ أعماها ونيرانا
ما عاد ليلٌ قد أستخفى بأقنعةٍ
من أوجُهِ الناس ، لولا أنتِ ، عريانا
ليلٌ تُعيذُ الكهوفُ السودُ آنيةً
فيها وفكّاً لموتاها وصَوّانا
من بعضِ ما فيه من ظلماءَ ، ما عُرفتْ
باسمٍ لها ، فهي قبلَ اسمٍ اذا كانا
حُيِّيتِ من قلعةٍ ما آدَ كاهلها
عِبءُ السماوات إلاَّ خفَّ إيمانا
أمسكنِها أن يميد الظالمون بها
ديناً لنا وانتصاراتٍ وعُنوانا .
يا مرفأ النور ، ما أرجعتِ وادعة
من غير زاد ، ولا آويتِ قُرصانا
ولا تلفظتِ من مرساكِ معتدياً
إلا مدمّى ذليلَ الهام خَزْيانا

جمَعتِ من شطٍّ صُورٍ لمْحَ أحرُفِها

واختـرتِ مـن بـابلٍ واحتـزْتِ مـروانـا

والـنـيـلُ سـاقَ الـعـذارى مـن عـرائِسـه

للخِصْب ، في موكب الفادين ، قُربانا!

فـالوَيْـل... لـو كـان للـعـاديـن مـا قَـدَروا!

لانــهــدَّ مــن حــاضــرٍ مــاضٍ فــأخــزانـا

فلا ابـتـنـى هـرمـاً بـانٍ ، ولا لـبـسـتْ

تيـجانَـهـا ، في انـتظـار الـروح ، موتـانـا

ولا تـفـجَّـر فـي «ذي قـارَ» فِـثـيَـثُـهـا

ولا تـنـفـسَّـتِ الـصـحـراءُ قُـرآنـا!

حُـيِّـيـتِ مـوتـى ، وأحـيـاءً ، وأبـنـيـةً

مـسـتـشـهـداتٍ أو اسـتـعـصـيْـنَ أركـانـا

والـنـار والـبـاذرونَ الـنـار كـم زرعـوا

مـن كـلِّ ثـكـلـى لـعـزرائـيـل بُـسـتـانـا!

مـن كـلِّ وَجـهِ لـطـفـلٍ فـيـه زنـبـقـةٌ

تَـدمى ، وتـلـتـمُّ فـيـه الـرِّيح غِـرْبـانـا

الـجـوّ مـمـا يـلـزّون الـحـديـدَ بـه

قـاعُ الجـحـيـم التظـى وانصبَّ طوفـانـا

سـقـاكِ مـن كـلِّ غـيـمٍ فـيـه أحـرَزَهُ

جـوفُ الـثـري واشـتـهـتْـه الـنـارُ أزمـانـا

كـأسَ الـرَّصـاص الـتـي غنّـى بـتـوأمـهـا
«سـقـراطُ» وابـتـلَّ منـهـا جـرحُ وهـرانـا[1]
من أيِّما رنةٍ؟ من أي قيثارِ
تنهلُّ أشعاري؟
من غابةِ النارِ؟
أم من عويل الصبايا بين أحجار
منها تنزُّ المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار؟
من أيِّ أحداق طفلٍ فيكِ تُغتصَبُ؟
من أيِّ خبزٍ وماءٍ فيك ما صلبوا؟
من أيِّما شُرْفةٍ؟ من أيِّما دارٍ؟
تنهلُّ أشعاري
كالثارِ؟
كالنور في رايات ثوَّار؟
من مانكِ السهران أوتاري؟
أم بُرجكِ الهاري
يبكي دماً من جرح بحَّار؟
أطفالكِ الموتى ، على المرفأِ
يبكون في الريح الشماليه ،
والنور من مصباحه المطفأِ
قد غار كالمديه

(١) أجبر الفيلسوف الأغريقي سقراط على تجرع كأس من السم .

في صدريَ العاري .
أطفالك الأموات عارُ الحديدْ
في عرسه الدامي ، وذلُّ الرصاصْ ،
مالوا بملك من شقاء العبيد
واستنزلوا أربابه للقصاص
في ساحة النارِ .
يبكون في الريح الشماليه
أسرى ، على السُّفْن الصليبيه ،
والريح كالمديه
تجتثُّ أظفاري .
يبكون... في داري .

بالقشِّ والطين سدّوا كوّةَ القَمَرِ ،
والريحُ في الشجر
قد كمَّموا فاها ،
كي لا تصيح : اخبنوا عن أعيُن الغَجَرِ
أطفالكم ، فهي ما ترتدُّ احداها
إلا وحالك الذي تلقى ، إلى حَجَرِ»
الريحُ قيثاري
قد كمَّموا فاها

هاويكِ أعلى من الطاغوت فانتصبي
ماذلَّ غيرُ الصفا ـ للنار ـ والخشبِ
حُيِّيتِ من قلعةٍ شقَّ الفضاءَ بها
أسٌ لها في صدور الفتيةِ العرب
الطين فيها دمٌ منا ، وجندلُها
من عزمةٍ ، والحديد الصُلْدُ من غضب
أنتِ السماواتُ والأرض ، التي خُلِقت
في عشرةٍ تحسِب الأيام بالحُقُب
والصخر فيكِ استمدَّ الروحَ إذ لمستْ
عُقْمَ الجماداتِ فيه إصبَعُ اللهَب
في كلّ أنقاض دار ، من صفاه يدٌ
جبّارةٌ تصفع العادين كالشهب
ما انهدَّ إلا وأعلى في ضمائرنا
سداً من الثار أعيى حيلة النُوَب .
والماء ، حتى زلالُ الماءِ فيكِ مُدىً
من فضّة اللّه توهي جحفل الذهب
ما بلّ للجحف المأجور غُلّته
حتي جبى قِدْرَ ماءٍ من دمٍ سرب!
أملى على كلّ شيء فيكِ جوهَرَه
حِلْفٌ لجيشين : ذي قُربى وذي أرَب

إن الحديدَ الذي صُنتِ الحياةَ به
غيرُ الحديد الذي وافاكِ بالعطب
والخير في بُندقياتٍ قذائفها
حتفُ المغيرين ، والميلادُ في قُضُب
لكنه الشرُّ في خبزٍ حقائبُه
عونٌ لأعدائكِ الجوعى ، وفي قِرَب!
ليت المسيحَ الذي داجى بشِرْعتِه
من باع مثواه ، راءٍ فيك عن كثب :
خرسٌ نواقيسكِ الثكلى ، ودامية
فيكِ الأناجيلُ ، والموتى بلا صُلُب
والحابس الماءَ عن جرحاكِ حمَّلها
عبءَ الصليبين : من حُمَّى ومن خشب
واستنطق الأمَّ ثكلى : أين جيرتها
من فتيةٍ لاصطياد العسكر اللَّجب ؟
فالتمَّ في مقلتيها ، وهي تنظره ،
كلُّ المخاضات والتسهيد والنَّصَب
كأنما استودعتها كلُّ والدةٍ
آجالَ كلِّ الذراري طيلة الحِقَبِ
فاختارت الموت معلوكاً مراضعُها ،
معروكةً في رحىً تترى ن الرُّكَبِ

تفدي بما يستبيح الجندُ من دمها

والنار ، أعراضَ كلِّ الخرَّدِ العُرُبِ .

أبناءُ «جنكيزَ» في روحٍ ، وان بعدوا

في نسبةٍ : ربَّ قُربى دون مُنْتَسَب

شرُّ اللصوص ، اذا عفَّ التتارُ... فما

عفَوا عن الرِّيش والأسمال واللُّعَبِ!

فلتنفخ الصُّورَ في أفريقيا أُمَمٌ

بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُّتبِ

ولتُسمعنَّ الزنوج البيض صيحتها :

«إنا إلى اللّه أدنى منكِ في نسب»!

حُيِّيتِ فالوحش أوهى فيك مخلبهُ ؛

يا غابة النار قد أثمرْتِ بالغَلَب!

من أيِّ عبءٍ على روحي ومسمارِ

من أعينٍ ، في صليب تحت أسواري ،

تأتيكِ أشعاري ؟

حمراءَ خضراءَ من جُرحٍ ومن غارِ ،

خضراءَ من راية ، حمراءَ من نار ،

خضراءَ كالماء في فردوسكِ الجاري ؟

يا ليت أوتاري

خضراءُ حمراءُ من قلبي ومن ثاري!
ياليتَ أبوابَ قلبي منكِ تلتهِبُ!
ياليتِها دون قُفْلٍ ، ليتها خشَبُ!
أو خرّبَ الجندُ قلبي ، فهي تنتحبُ
في كلِّ إعصار!
سودٌ ، كما اسودّت الأمواتُ ، أنهاري
فالطين فيها فمٌ يمتصُّ أسفاري ،
والريحُ في داري
سوداءُ ما رفَّ منها باللّظى عصَبُ .
لا تسألي بعدُ عنها : إنها عشُب
أعواده السود غذّى عجلهُ الذهبُ
منها ، فخبّأتُ في عينيّ قيثاري!
كوني لاشعاري
وحياً ، وشدّي ببأسٍ منك أوتاري .
يا مرفأ النور ، كن مرسىً لأفكاري!
يا مرفأ النار
الهبتَ أغواري
بالثارِ
مزّقت عنها سودَ أستارِ
فانهلّتِ الشمسُ على داري .

كم من دفين ، كلُّ ماء القنالْ
في مدّه العاتي وفي جزرهِ ،
يلقي على صدرهِ
عبْئاً من الظلماء ـ كان القتال
من أجل أن يرتاحَ في قبرهِ!
ما كان إلاًّ من دموع الرجَال
والنسوة الباكين في قعره ،
هذا الذي بين العُبابيْنِ سال!
كالليل هذا الماءُ فوق القبورْ
كالنار ، كالإعصار ، كالداء :
تختضُّ في ليل الخليج الصدور ،
والشمسُ تحسو كلَّ ماءِ الصدور
في عالم لم تمشِ فيه العصور ـ
من ملتقى للماء بالماء!
كالليل هذا الماء ، نِد الحياه :
الموْت والميلاد بوّابتاه .
في قاعِهِ الموتى قد استبدلوا
بالنبض ، ما يُرغي به المرجلُ
في موقرات ، من سفين الغزاه ،
بالموتِ مما يصنع المعملُ .
حتى اذا ما رشَّ عارَ العُتاه

بالدمعِ من عينيه ، والنارِ
من قلبه المورق بالغارِ ،
انسانُكِ العملاق ظِلّ الإله ،
ظِلُّ الملايين التي مقلتاه
عنها ترى ما في خيال تراه ،
هذا الذي أعصابُها في قِواه ـ
احيى دمَ الموتى ، فخرَّ الطغاه!
فليحرسِ الاحياء باب الحياه!

غاضَ المغيرونَ عن واديكِ وانحسروا
فالأرضُ تدمى بقتلاها وتزدهرُ
وازداركِ الموتُ لا مُلْساً ملامحه
بيضاً ، كما تهلك الأنعام والشجَر
حاشاك! فالموتُ توري فيكِ حدتُه
طغمَ الدم الحيِّ ، ما يرقى به البشر
أخفاهُ عنك التزامٌ واشتباكُ يدٍ
في مثلها ، فهو حيثُ اجتازهُ البصر
حتى إذا ارتدَّ واستبشعتِ صورتهُ
أدركتِ أيَّ انتصارٍ ذلك الظَّفرُ!
أدركتِ أنَّ الضحايا ردَّ كاثرَها
فيكِ الأقلُّ المضحِّي أنّها كثُر

من سدّدَ النارَ في أيديكِ ، يُوردها
كيْدَ المغيرينَ منه الظنُّ والنظر ؟
واحتاز في قلبه الاحقابَ ، يزرعها
في جانبٍ منه واستبسالكِ الثمر ؟
واستنفر الشرق حتى كاد ميِّته
يسعى ؟ أهذا صلاحُ الدين أم عَمر ؟
هذا الذي حدثتنا عنه أنفسنا
في كلِّ دهياءَ نبلوها وننتظر
هذا الذي كلَّ ، عن سحقٍ لبذرته
بالخيل والذابلات ، الرومُ والتتر
يا أمَّةً تصنع الأقدارَ من دمها
لا تيأسي . انّ «سيف الدولة» القدر
أعطى لكلٍّ انتصارٍ فيك جدتَّهُ
فاخضلَّ واخضلت الآياتُ والسُّوَرُ
في مسجدٍ أمَ مشّاءُ بأمَّتِه
فيه المصلِّين ، حتى كبَّرَ الحجر!
واستشرفَ الساحَ ناءٍ عنه يحمله
ما بين جنبيْه ، رامٍ فيه منْتصر :
عينٌ لسيناءَ ترقى كلّ رابيةٍ
فيها ، وعينٌ وراء النيل تنحدر

أو تنفِضُ الأفقَ ، حتى ضاءَ من لهبٍ
حملاقها ، فهي ممّا راءَ تستعِر!
جاؤوك! جاء الصليبيون ، قاصفة
تنقضُ في أثرٍ أُخرى ، فاللظى مطر
في كلِّ فانوس موتى من قذائفها
نورٌ له اختضّت الأبعادُ والعُصُر
فالشرق عارٍ مدى عينيْه ، منبسطٌ
كالراحة : الدور ، والأكواخ والحُفر
يكاد يبصر ما أبقاه مكتدَحٌ
في جبهةٍ ، واغتذى من مقلةٍ سَهرُ
إيماضةَ البرق : إلا أنها حقبٌ
تُطوى ، ومستقبل يُبْنى ويدّخر!
المجد للّه والإنسان : ان يداً
تحيي وقلباً يداوي ، منهما أثر!
يا قلعة النور تدمى كلُّ نافذةٍ
فيها ، وتلظى ، ولا تستسلم ، الحُجَر
أحسَسْتُ بالذُّلِّ أن يلقاكِ دونَ دمي
شعري ، وأَني بما ضحَّيْتِ أنتصر
لكنّها باقةٌ أسعى إليكِ بها
حمراءُ يخضُ فيها من دمي زهَر!

شناشيل ابنة الجلبي[1]

وأذكرُ من شتاء القريةِ النضّاحِ فيه النورُ
من خَلَل السّحاب كأنّه النَّغَمُ
تسرَّبَ من ثقوب المعزف ـ ارتعشتْ له الظلَمُ
وقد غنَّى ـ صباحاً قبْلَ... فيم أعدُّ ؟ طفلاً كنت أبتسمُ
لليْلي أو نهاري أثقلتْ أغصانَه النشوى عيونُ الحوْر .
وكنا ـ جدَنا الهدَّار يضحك أو يغَّني في ظلال الجوسق القَصَبِ
وفلاَحيه ينتظرون : «غيثَك يا إلهُ» وإخوَتي في غابة اللَّعِبِ
يصيدون الأرانبَ والفَراش ، و(أحمدَ) الناطور ـ
نحدِّقُ في ظلال الجوسق السمراء في النَّهْرِ
ونرفع للسحاب عيونَنا : سيسيل بالقطْرِ .
وأرعدتِ السماءُ فرنَّ قاعُ النهر وارتعشتْ ذُرى السَّعَفِ

(١) الشناشيل : شرفة مغلقة ، مزينة بكثير من الخشب المزخرف والزجاج الملون ، كان شائعاً في البصرة وبغداد قبل مائة سنة . والجلبي لقب هو عند المصريين «شلبي» وعند الأوروبيين «ماركيز» .

وأشعلهنَّ ومضُ البرق أزرقَ ثمّ اخضر ثم تنطفىءُ
وفتحت السماءُ لغيْثِها المدرار باباً بعد بابِ
عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىءُ
تكلّلُه الفقائعُ ، عاد أخضرَّ ، عاد أسمرَ ، غصّ
بالأنغام واللّهَفِ
وتحت النخْل حيثُ تظلُّ تمطِرُ كلُّ ما سعْفَه
تراقصتِ الفقائعُ وهي تُفجَرُ - إنّه الرُّطَبُ
تساقطَ في يد العذراء[1] وهي تهزُّ في لهفه
بجذع النخلةِ الفرعاء (تاجُ وليدكِ الأنوارُ لا الذَّهَبُ ،
سيصلب منه حُبُّ الآخرين ، سيُبرىءُ الأعمى
ويبعث من قرار القبْر ميْتاً هدَّه التَعَبُ
من السفَرِ الطويل إلى ظلام الموْت ، يكسو عظمَه اللحما
ويُوقد قلبَه الثلجي فهو بحبِّه يثبُ!) .

*

وأبرقتِ السماءُ... فلاح ، حيث تعرَّجَ النهرُ ،
وطاف معلَّقاً من دون أَسٍّ يلثمُ الماءَ
شناشيلُ ابنة الجلبيِّ نوَّر حوله الزَّهَرُ
(عقود ندىً من اللبْلاب تسطع منه بيضاءا)

(١) « وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » (سورة مريم ـ القرآن الكريم) .

وآسيةُ الجميلة كحَّل الأحداقَ منها الوجد والسَّهَرُ .

*

يا مطراً يا حلبي
عبِّرْ بنات الجلبي
يا مطراً يا شاشا
عبِّر بنات الباشا[1]
يا مطراً من ذهبِ .

*

تقطّعتِ الدروب ؛ مقص هذا الهاطلِ المدرارِ
قطَّعها ووِاراها ،
وطوّقتِ المعابرُ من جذوع النخل في الأمطارْ
كغرقى من سفينةِ سندبادَ ، كقصّةٍ خضراء أرجأها وخلاها
إلى الغد (أحمدُ) الناطورُ وهو يديرُ في الغرفةْ
كؤوسَ الشاي ، يلمس بندقيّته ويسعل ثم يعبر طرْفُه الشُرْفه
ويخترق الظلامَ .
وصاح «يا جدِّي» أخي الثرثارْ :
«أنمكث في ظلام الجوْسق المبتلِّ ننتظرُ ؟

(١) هكذا يغني الأطفال في قرى البصرة حين تمطر السماء · «مطر ، مطر ، ياحلبي . عبر بنات الجلبي » الخ...

متى يتوقفُ المطرُ ؟ »

*

وأرعدتِ السماءُ ، فطار منها ثَمَّةَ انفجرا
شناشيلُ ابنة الجلبيِّ...
ثمَ تلوحُ في الأفُقِ
ذُرى قوس السّحاب . وحيث كان يُسارق النَّظرا
شناشيلُ الجميلةِ لا تصيبُ العيْنُ إلا حمرةَ الشَّفَقِ .

*

ثلاثون انقضتَ وكبرْتُ : كم حبٍّ وكم وجْدِ
توهَّج في فؤادي!
غيرَ أني كلّما صَفَقتْ يدا الرَّعْدِ
مددتُ الطرَّف أرقبُ : ربما ائتلقَ الشناشيلُ
فأبصرتُ ابنةَ الجلبي مقبلةً إلى وعدي!
ولم أرها . هواءٌ كلُّ أشواقي ، أباطيل
ونبْتٌ دونما ثمرٌ ولا وَرْدِ!

لندن ١٩٦٣/٢/٢٤

إرم ذات العماد

(عند المسلمين أن «شداد بن عاد» بنى جنة لينافس بها جنة
الله ، هي «إرم» . وحين أهلك الله قوم عاد ، اختفت «إرم»
وظلت تطوف ، وهي مستورة ، في الأرض لا يراها إنسان إلا
مرة في كل أربعين عاماً . وسعيد من انفتح له بابها) .

من خَلَلِ الدُّخان من سيكاره ،
من خلل الدخانْ
من قَدَحِ الشاي وقد نشَّر ، وهو يلتوي ، إزارَه
ليحجبَ الزمان والمكانْ ،
حدثنا جدُّ أبي فقال : «يا صغارْ ،
مقامراً كنتُ مع الزمانْ ؛
نقودي الأسماكُ ، لا الفضةُ والنضارْ ،
والورَق الشِّباك والوِهار[1] .

(١) الوهار : أداة لصيد السمك تصنع من أغصان الشجر .

وكنتُ ذات ليْله
كأنما السماء فيها صَدَاً وقار ،
أصيدُ في الرُّميْله
في خوزها العميق ، أسمعُ المحارْ
موسْوساً كأنما يبوح للحصى وللقِفار
بموطن اللؤلؤةِ الفريدة ،
فأرهفُ السَّمعَ لعلِّي أسمع الحوار .
وكان من ندى الخريف في الدجى بُروده
تدبُّ منها رعشةٌ في جسدي فأسحبُ الدِّثار .
وانفرجَ الغيمُ فلاحتْ نجمةٌ وحيده
ذكرتُ منها نجمتي البعيده
تنام فوق سطْحها وتسمعُ الجِرارْ
تنضحُ (يا وقْعَ حوافرٍ على الدروبْ
في عالَم النُّعاس ؛ ذاك عنترٌ يجوب
دجى الصَّحارى . إن حيَّ عبْلةَ المزار) .
فسرتُ والسَّماءُ وجهتي ، ولا دليلْ ،
أرَقب نجمها الوحيد ، والشُّعاعْ
يخفتُ أو يؤُجُّ مانعاً ومانحاً ، وكالشِّراع
ترفع أو تحطُّه الرِّياحُ في الصِّراع .
أسرتُ ألف خطوة ؟ أسرتُ ألفَ ميلْ ؟
لم أدرِ إلاَ أنَّني أمالني السَّحَرْ

إلى جدار قلعةٍ بيْضاءَ من حَجَرْ ،
كأنما الأقمارُ منذ ألفِ ألف عامْ
كانت له الطِّلاءْ ،
كأنما النجومُ في المساءْ
سلْنَ عليْه ثمَّ فاض حوله الظَّلامْ .
وسرتُ حول سورها الطويلْ
أعدُّ بالخطى مداه (مثلَ سندُبادْ
يسيرُ حول بيْضة الرُّخِّ ولا يكاد
يعود حيث ابتدأَ
حتى تغيب الشمس ، غشى نورَها سوادْ ،
حتى إذا ما رفع الطرْفَ رأى ... وما رأى ؟)
حتى بلغتُ في الجدار موْضعَ العمادْ
تقوم فيه ، كالدُّجى ، بوَّابةٌ رهيبه
غلّفها الحديدُ ، مدَّ حَوْلَها نحيبه
أراه بالعيون لا تَحسُّه المسامعُ .
وقفتُ عندها أدقُّ...

يا صدىً أراجعُ
أنت من المقابر الغريبه ؟
أُحسُّ في الصدى
برودةَ الرَّدى ،
أشمُّ فيه عَفَنَ الزّمان والعوالِمَ العجيبه

من إرَمٍ وعادْ .
وحين كلَّ ساعدي
وملّني الوقوفُ في الظلامْ
(كناسكٍ ، كعابدِ
يرفضُه الإلهُ في معبده ، يظل لا ينام
ولا يريد الماء والطعامْ ،
يصيحُ : «كن على الهوى مساعدي
يا رافعَ السّماء ، يا موزِّعَ الغمام») .
جلستُ عند بابها كسائلٍ ذليلْ
جلستُ أسمع الصدى ، كأنه العويلْ ،
يلهثُ خلْفَ حائطٍ من حَجَر ثقيل
كأنَّ بين دَقّةٍ ودقة يمرُّ ألف عامْ
وما أجاب العَدمُ الخواءْ .
وحين أوشك الصباحُ يهمس الضياءْ
نعستُ ، نمتُ... واستفقتُ : «مر ألفُ جيلْ!!
الشمس والفلاه
والغيْمُ والسماءْ
وكل ما أراه
هناك حيث كان سورُها ، المياه
تشعُّ في الخليجْ» .
وقال جدُّنا ولج في النشيج :

«ولن أراها بعدُ ، إنَّ عمريَ انقضى
وليس يُرجع الزمان ما مضى .
سوف أراها فيكُم ، فأنتم الأريج
بعد ذبول زهرتي . فإن رأى إرم
واحدُكم فليطرقِ البابَ ولا ينمْ .
إرَمْ...
في خاطري من ذكرها ألَمْ ،
حُلم صباي ضاعَ... آهِ ضاع حين تمّ
وعمري انقضى» .

لندن ١٩٦٣/٢/٢١

في الليل

الغُرْفةُ موصَدَةُ البابِ
والصمتُ عميقْ
وستائرُ شبّاكي مرخاةٌ...
رُبَّ طريق
يتنصَّتُ لي ، يترصَّدُ بي خلفَ الشبّاك ، وأثوابي
كمفزِّعِ بُستان ، سودُ
أعطاها البابُ المرصودُ
نَفَساً ، ذرَّ بها حسّاً ، فتكادُ تفيقْ
من ذاك الموت ، وتهمس بي ، والصَّمْتُ عميق :
«لم يبقَ صديق
ليزورك في الليل الكابي
والغرفةُ موصدةُ البابِ» .

ولبستُ ثيابيَ في الوهْمِ
وسريتُ : ستلقاني أُمِّي
في تلك المقبرةِ الثكلى ،
ستقول : «أتقتحمُ اللَّيْلا
من دون رفيق ؟
جوعانُ ؟ أتأكل من زادي :
حرّوبِ المقبرة الصادي ؟
والماءُ ستنهله نهْلا
من صدر الأرض :
ألا ترمي
أثوابك ؟ والبس من كَفَني ،
لم يبْلَ على مرِّ الزَّمَنِ ؛
عزريلُ الحائكُ ، إذْ يبلى ،
يرفوه . تعال ونَمْ عندي :
أعددْتُ فراشاً في لَحْدي
لكَ يا أغلى من أشواقي
للشمس ، لأمواهِ النَّهْرِ
كسلى تجري ،
لهُتاف الدِّيكِ إذا دوّى في الآفاقِ
في يوم الحشْرِ» .

سآخذُ دربي في الوَهْمِ
وأسير فتلقاني أمّي .

لندن ١٩٦٣/٢/٢٧

ها...ها...هوه

تنامين أنت الآن واللَّيلُ مُقمرُ
غانيه أنسام وراعيه مِزهر ،
وفي عالم الأحلام ، من كلّ دَوْحةٍ
تلقَّاكِ مَعْبَر
وبابٌ غفا بين الشجيرات أخضرُ .
لقد أثمر الصمتُ (الذي كان يُثمر
مع الصُّبح بالبوقات أو نوح بائعٍ) ،
بتينٍ من الذكرى وكرمٍ يقطّرُ
على كلّ شارع
فيحسو ويسكر
برفقٍ فلا يهذي ولا يتنمَّرُ .

*

رأيتُ الذي لو صدق الحُلم نُفْسَهُ
لمدَّ لك الفما
وطوّق خصراً منك واحتاز معصما ؟
لقد كنتِ شمسَهُ
وشاء احتراقاً فيك ، فالقلبَ يُصهر
فيبدو ، على خدَّيكِ والثَّغرِ ، أحمر
وفي لَهَفٍ يحسو ويحسو فيسكرُ .

*

لقد سئم الشِّعرَ الذي كان يكتبُ
كما ملَّ أعماقَ السماء المذنَّبُ
فأدمى وأدمعا :
حروب وطوفان ، بيوتٌ تُدمَّرُ .
وما كان فيها من حياة تصدَّعا .
لقد سئم الشِّعرَ الذي ليس يذكرُ
فأغلقَ للأوزان باباً وراءه
ولاح له بابٌ من الآسِ أخضر
أراد دخولاً منه في عالم الكرى
ليصطاد حلماً بين عينيك يخطر

وهيهات يقدر!

*

من النَّفس ، من ظلمانها ، راح ينبع
وينثال نَهْرٌ سال فانحلَّ منزر
من النُّور عن وضّاءَ تخبو وتظهر .
وفي الضفّة الأُخرى تحسّين صوته
(فما كان يُسمَعُ)
كما يشعر الأعمى إذِ النور يظهر ،
يناديكِ :
«ها... ها... هوه»
ماءٌ ويقطر
من السّعفة النَّشوى
بما شربتْ من غيمةٍ نثُّها نجوى
وأصداء أقدامٍ إلى اللّه تعبرُ .

*

وناديتِ : «ها... ها... هوه» لم ينشرِ الصدى
جناحيه أو يبكِ الهواء المُثرثرُ . .
ونادى وردّدا :
«ها... ها... هوه!»

وفتَّحتِ جفناً وهو مازال ينظر ،

ينادي ويجأر .

لندن ٢٩/٢/١٩٦٣

أحبِّيني...!

وما من عادتي نكرانُ ماضيَّ الذي كانا ،
ولكنْ... كلُّ من أحببْتُ قبلك ما أحبّوني
ولا عطفوا عليَّ ؛ عشقت سبعاً كنَ أحيانا
ترف شعورهن عليَّ ، تحملني إلى الصينِ
سفائنُ من عطور نهودهنّ ، أغوص في بحرٍ من الأوهام والوجدَ
فالتقط المحار أظنُّ فيه الدُرَّ ، ثم تظلُّني وحدي
جدائلُ نخلةٍ فرعاء؛
فابحث بين أكوام المحار ، لعلَّ لؤلؤة ستبزغ منه كالنَّجمه ،
وإذ تدمى يداي وتُنزع الأظفار عنها ، لا ينزُّ هناك غيرُ الماء
وغير الطين من صَدَفِ المحار ، فتقطر البسمه
على ثغري دمعاً من قرار القلب تنبثقُ ،
لأن جميع من أحببتُ قبلك ما أحبّوني .
وأجلسهنَّ في شُرَف الخيال... وتكشف الحُرَق

ظلالاً عن ملامحهنَّ : آهِ فتلك باعتني بمأفونِ
لأجل المال ، ثم صحا فطلّقها وخلاّها .
وتلك... لأنها في العمر أكبرُ أم لأنَّ الحُسنَ أغراها
بأني غير كفءٍ ، خلّفتني كلما شرب الندى ورَقُ
وفتَّح برعمٌ مثّلتُها وشممتُ ريّاها ؟
وأمسِ رأيتُها في موقف للباص تنتظرُ
فباعدتُ الخُطى ونأيتُ عنها ؛ لا أريد القربَ منها ،
هذه الشمطاء
لها الويلات ؟ ثم عرفتُها : أحسبْتِ أن الحسْنَ ينتصرُ
على زمن تحطّم سور بابلَ منه ، والعنقاء
رمادٌ منه لا يُذكيه بعث فهو يستعر ؟
وتلك كأنَّ في غمّازتيْها يفتح السَحَرُ
عيونَ الفُلِّ واللّبلاب ، عافتْني إلى قصر وسيّاره ،
إلى زوج تغيَّر منه حالٌ ، فهو في الحاره
فقير يقرأ الصحفَ القديمةَ عند باب الدار في استحياء ،
يحدّثُها عن الأمس الذي ولّى فيأكل قلبَها الضّجَرُ .
وتلك وزوْجها عبْداً مظاهرَ ليْلُها سَهَرُ
وخمرٌ أو قمارٌ ثم يوصَدُ صُبْحَها الإغفاء
عن النَّهر المكركر للشراع يرفّ تحت الشمس والأنداء .
وتلك ؟ وتلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها ،
شربتُ الشّعر من أحداقها ونعستُ في أفياء

تنشّرُها قصائدُها عليَّ ، فكل ماضيها
وكل شبابها كان انتظاراً لي على شطٍّ يهوِّم فوقه القَمَرُ
وتنعس في حِماه الطيرُ رشّ نُعاسَها المطرُ
فنبهها فطارت تملأ الآفاقَ بالأصداءِ ناعسةً
تؤج النور مرتعشاً قوادمُها ، وتخفقُ في خوافيها
ظلالُ الليل . أين أصيلُنا الصيفيُ في جيكورْ ؟
وسار بنا يوسوس زورقٌ في مائه البلّور ؟
وأقرأ وهي تُصغي والربى والنَّخل والأعناب تحلم في دواليها ؟
تفرّقت الدروب بنا نسير لغير ما رجعَه ،
وغيّبها ظلامُ السجن تؤنسُ ليلَها شمعه
فتذكرني وتبكي . غير أني لستُ أبكيها
كفرت بأمَّة الصحراء
ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكَّةٍ أو عند واديها .
وآخرهنَّ ؟ ؟
آه... زوجتي ، قَدَري . أكان الداء
ليقعدني كأني ميِّتٌ سكران لولاها ؟
وهأنا... كلُّ من أحببتُ قبلك ما أحبّوني .
وأنتِ ؟ لعلّه الإشفاق!!
لستُ لأعذرَ اللّهَ
إذا ما كان عطفٌ منه ، لا الحب ، الذي خلّاه يسقيني
كؤوساً من نعيمٍ .

آهِ ، هاتي الحبَّ ، روِّيني
به ، نامي على صدرِي ، أنيميني
على نهديك ، أوّاها
من الحُرَق التي رضعتْ فؤادي ثمّةَ افترستْ شراييني .
أحبّيني
لأن كلَّ من أحببتُ قبلك لم يحبّوني .

باريس ١٩/٣/١٩٦٣

أم كلثوم والذكرى

وأشربُ صوتَها... فيغوص من روحي إلى القاعِ
ويُشعل بين أضلاعي
غناءً من لسان النار ، يهتف « سوف أنساها
وأنسي نكبتي بجفانها وتذوب أوجاعي » .
وأشرب صوتها... فكأنَّ ماء بُويبَ يسقيني
وأسمع من وراء كرومه ورباه « ها... ها... ها »
تردِّدها الصبايا السُّمْرُ من حينٍ إلى حين .
وأشربُ صوتها فكأنَّ زورقَ زفّةٍ وأنينَ مزمارِ
تجاوبُه الدرابكُ ، يعبران الروح في شَفَقٍ من النار
يلوح عليه ظل وفيقةَ الفرعاء أسودَ يزفر الآها
سحائب من عطورٍ ، من لحونٍ دون أوتارِ .
وأشرب صوتها... فيظل يرسم في خيالي صفَّ أشجارِ
أغازل تحتها عذراءَ ؛ أوّاها

على أياميَ الخضراء بعثرها ووراها
زواجٌ . لَقيت لحن العُرس كان غناء حفّارِ
وقرعاً للمعاولِ وهي تحفر قبريَ المركوم منه القاع بالطين
وأذكرها ، وكيف (وجسْمُها أبقى على جسمي
عبيراً منه ، دفئاً غلّف الأضلاع) أنساها ؟
أأنساها ؟ أأنسى ضحكةً رعشت على لحمي
وأعصابي ، وكفّاً مسّحتْ وجهي برياها ؟ ؟
قُساة كلُّ من لاقيتُ : لا زوجٌ وَلَدُ
ولا خِلٌ ولا أب أو أخ فيزيل من همّي...
ولكنْ . ما تبقى بعدُ من عُمريْ ؟ ـ وما الأبَدُ...
بعمري ـ
أشهُرٌ ويريحني موتٌ فأنساها .

لندن ـ ١٩٦٣/٣/٩

كيف لم أحببك؟

كيف ضيَّعتك في زحمة أيامي الطويله ؟
لم أحلَّ الثوبَ عن نهديكِ في ليلة صيف مُقْمرَه ؟!
ـ يا عبير التّوت من طوُقيهما... مرّغتُ وجهي في خميله
من شذى العذراء في نهديك ـ
ضيَّعْتك ، آهٍ يا جميله!
إنه ذنبي الذي لن أغفره!
كيف لم أحببكِ ؟! يا لهفة ما بعد الأوان
في فؤادٍ لم تكوني فيه إلا جذوةً في مجمره!
شعرك الأشقر شعَّ اليوم شمساً في جناني
يتراءى تحتها ساقاكِ ، يا للزنبقِ
رفَّ من ساقيْك ؟!
آهٍ كيف ضيّعتك يا سرحة خوخٍ مُزهرَه ؟
آه لو عندي بساط الريح!!

لو عندي الحصان الطائرُ!!

آه لو رجلاي كالأمس تُطيقان المسير!!

لطويت الأرضَ بحثاً عنكِ .

لكنَّ الجسورا

قطعتها بيننا الأقدار . مات الشاعرُ

فيَّ وانسدّت كوى الأحلام .

آهِ يا جميله!

البصرة ١٩٦٣/١١/٨

تاريخ زمني

- ولد في العام ١٩٢٦ ، بجيكور . أبوه شاكر السياب ، وأمه كريمة السياب .
- درس الإبتدائية في مدرسة المحمودية بأبي الخصيب وتخرج في العام ١٩٣٨ .
- تخرج في ثانوية البصرة ، العام ١٩٤٢ .
- دخل دار المعلمين العالية في العام ١٩٤٣ .
- فصل منها في العام ١٩٤٦ بسبب تحريضه على إضراب .
- أصدر ديوانه الأول «أزهار ذابلة» في العام ١٩٤٧ ، وقد طُبع في القاهرة .
- تخرج في العام ١٩٤٨ ، ومثَّل في العام نفسه طلاب دار المعلمين في المؤتمر الأول للطلبة العراقيين .
- في السنة نفسها عُيِّن مدرساً للغة الإنجليزَية في ثانوية الرمادي .
- ألقي عليه القبض في البصرة ، عام ١٩٤٩ ، وسُجن ، وفصل رسمياً من العمل ، ومنع من التدريس لمدة عشر سنين .
- اشتغل في شركة نفط البصرة ، وشركة التمور العراقية .
- عاد إلى بغداد في العام ١٩٥٠ . أصدر مجموعته الثانية «أساطير» .

- أصدر «حفار القبور» ، في العام ١٩٥٢ .
- بعد انتفاضة ١٩٥٢ هرب متنكراً الى إيران (المحمرة ـ خرّمشهر) .
- نزل الكويت في أوائل ١٩٥٣ .
- عاد بعد ستة أشهر الى العراق .
- العمل في مديرية الاستيراد .
- صدور «المومس العمياء» و«الأسلحة والأطفال» ـ ١٩٥٤ .
- تزوج ١٩٥٥ .
- عضو الوفد العراقي في مؤتمر الأدباء العرب المنعقد بدمشق ١٩٥٦ .
- حيّا ثورة ١٩٥٨ بقصيدة لم تنشر .
- فقد عمله في مديرية التجارة العامة سنة ١٩٥٩ .
- زار بيروت ١٩٦٠ . أُلغي فصله . صدرت مجموعته «أنشودة المطر» .
- أواخر ١٩٦٠ عاد الى البصرة واشتغل في مصلحة الموانيء .
- ١٩٦١ يزور جيكور . صحته تتدهور . يحضر مؤتمراً للأدب العربي في روما .
- ١٩٦٢ صدور «المعبد الغريق» .
- ١٩٦٣ صدور «منزل الأقنان»
- بيروت ـ بغداد ـ باريس ـ لندن ، رحلات علاج فاشلة .
- ١٩٦٤ صدور «شناشيل ابنة الجلبي» .
- ١٩٦٤/١٢/٢٤ ، وفاته في المستشفى الأميري بالكويتّ .

الفهرس

٩٨/ ١١٣٥٦

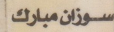
I SBN. 977- 01- 5902-6



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جْيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨



مائة وخمسون قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب